فانتازيا
رواية

ساعف

رواية

سعد عايد البدر

بوك لاند للنشر والتوزيع
BOOKLAND
PUBLISHING AND DISTRIBUTION

الطبعة الثانية

2575565132

ردمك: 978-1-966731-15-3

جميع الحقوق محفوظة

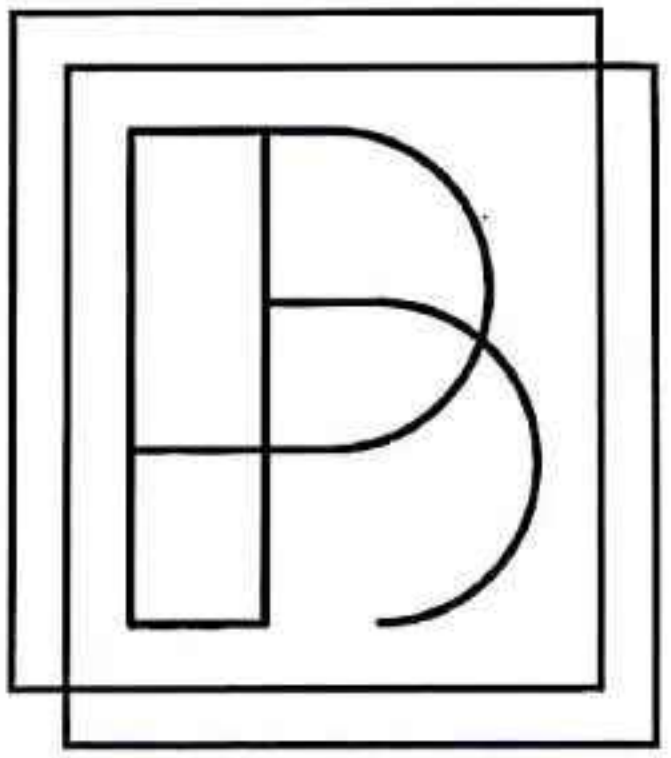

بوك لاند للنشر والتوزيع
BOOKLAND
PUBLISHING AND DISTRIBUTION

booklandkw
bookland.kw
www.booklandkw.com

مقدمة

ما زلتُ على ما قُلته سابقاً.. المقدمات مملة

لكن إن مررتَ هنا دعني أخبركَ أن عليك أن تبقى حياً وليس أن تحاول العيش فقط!

الإهداء..

إليك أنت عزيزي القارئ..

أتمنى أن تكون بخير، وأتمنى أن تحقق تلك الأمنية العالقة في رأسك.

"من زمنٍ نحن.

نحن أقدام الزمن وأفواهه.

وعاجلاً أم آجلاً، مثلما هو معروف، ستمحو رياح

الزمن الآثار.

عبور اللا شيء، خطوات اللا أحد! أفواه الزمن

تروي الرحلة."

- إدواردو غاليانو (أفواه الزمن)

بداية

استيقظتُ على ألم حاد يخترق رأسي، وكأنّ مطرقة ثقيلة تدقّ عظام جمجمتي بلا رحمة. فتحتُ عينيَّ ببطء، كانت المرئيات ضبابية في البداية، لكنني استطعتُ تمييز زقاق ضيق.

حاولتُ النهوض مستنداً على يدي. انتفض جسدي من البرد، كنتُ ملقى على أرض أسفلتية رطبة كما لو أنّ المطر قد توقّف عن الانهمار منذ فترة قصيرة. رفعتُ يدي لأتحسس رأسي، فوجدت سائلاً لزجاً يغطي أصابعي، نظرتُ إليها في ضوء مصباح الشارع الخافت، فإذا هي مخضَّبة بلون قانٍ... دم!

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

همستُ لنفسي: «أين أنا؟».

كل ما أتذكره أنني كنتُ... لا شيء! لا أتذكر شيئاً على الإطلاق، وقد غدا ذهني صفحة بيضاء! جرح في رأسي وذاكرة فارغة وزقاق مظلم.. يبدو

أن الأمر أخطر ممّا تصورتُ. آخر ما أتذكره أني قابلتُ أحدهم، وحدث شجار كبير بيننا، انتهى بـ... لا أتذكر للأسف!

ترنحتُ واقفاً، متشبثاً بحافة صندوق قمامة معدني. الدوار يجتاح رأسي بعنف، والعالم يدور من حولي كأنني في حفلة صاخبة مجنونة. أغمضتُ عينيَّ، وشرعت في ملء ذلك البياض العظيم في أفق رأسي واستعادة كينونتي، حيث بدأ مطر من نوع آخر ينهمر على ذهني. حسناً، اسمي ساعف. نعم، ساعف سعيد. عمري 35 عاماً. لديّ شقيق واحد أصغر مني اسمه سامر، يبدو أنّ أبي سعيد قد قرر أن يكون حرف السين هو بادئة اسمينا أيضاً كما هو اسمه. أغلب الظن أنه كان يظن (وقد أثبتت الأيام خطأ ظنه) أنني سأكون امتداداً له، ومكملاً لما يريد بناءه. خطوتُ بضع خطوات متعثرة نحو الشارع الفرعي الضيق، والذي لا أعرف كيف أتيتُ إليه أصلاً، والذكريات

تواصل انهمارها. أمي اسمها فريدة، وهي سليلة عائلة ثرية وعريقة في الكويت، وكل شيء في عائلتي وعائلة أبي - اللتين قد اندمجتا وصارتا قوة لا يستهان بها في شركة تجارية عملاقة - ينضح بالعراقة وبالفخامة. ثمة شيء ناشز وحيد فيها فيما يبدو، وهو أنا! التفصيلة الأخيرة هنا أني روائي هاوٍ، هكذا أحب أن أطلق على نفسي، فسيكون من الغريب أن أصف نفسي بروائي محترف، حتى بالرغم من صدور روايتين لي، وأعمل على المخطوطة الثالثة. أكملتُ سيري المترنح كأني مخمور، وقد تسارعت نبضات قلبي مع كل خطوة أخطوها في هذه الأزقة المتعرجة. كان الليل قد خيّم على المدينة، وبدت المصابيح الشحيحة كأعين صفراء تراقبني من علّو بلا اهتمام. تلفّتُ حولي للمرة العاشرة خلال دقائق معدودة، وقد انبعث هذا الشعور اللعين في مؤخرة رأسي موحياً بأن ثمة عيوناً خفية تلاحقني أينما ذهبت.

همستُ لنفسي: «تمالك نفسك يا ساعف، ربما هو مجرد وهمٍ من صنع خيالك الروائي المريض».

لكنّ الأمر لم يكن مجرد وهم! فثمة صوت خطوات خافتة تتسلل إلى أذني كلما توقفت عن المشي، ثم تختفي كلما استأنفت سيري. رحت أحثُّ الخُطى، وبدأ العرق البارد يتصبَّب من جبيني رغم برودة الجو. لم يعد الأمر مجرد شك، ثمة من يتبعني فعلاً!

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

(1)

انعطفتُ يميناً في زقاق ضيق يُفضي إلى شارع أوسع، آملاً في العثور على بعض المارة أو سيارة أجرة تُقلّني. حماقة مني أن أختار هذا الطريق المختصر الخالي من البشر في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل.

توقفتُ فجأة.

سمعتُ صوت حركة خلفي، ثم سكون مطبق. الهواء ساكن، والمباني القديمة المتلاصقة تشكِّل نفقاً موحشاً يبتلع أنفاسي، أحسستُ بقطرات العرق الباردة تنزلق على جبيني.

قلتُ في سري: «هيا يا رجل، أرهِ أنكَ لستَ خائفاً».

استدرتُ ببطء محدقاً في الظلام الكثيف خلفي، لا شيء سوى ظلمة دامسة.. تنفستُ الصعداء، هكذا ظننتُ لوهلة أن الأمور مجرد خيالات

صنعتها العتمة وظلالها، ثم فجأة تهاوى هذا الظنّ حين انفصلت كتلة مظلمة عن الشارع الضيق، وبرز منها رجل طويل القامة محني الظهر قليلاً، وبدا أنه في حالة نفسية في غاية السوء، زادتها عيناه اللتان كانتا تلمعان بشراسة كعينيّ قط في عتمة. الظلام والكراهية والوحشة تتشكّل جميعها وتأخذ هيئة بشرية!

تجمّدتُ في مكاني من الرعب، علامة استفهام أخرى سخيفة تنضم إلى أخواتها!

صاح بصوت أجش غاضب مرتعش: «أخيراً وجدتُك! لقد قلبتُ المدينة بحثاً عنك».

لم أتعرف على صوته، لم أستطع تذكّر إن كنتُ قد قابلته من قبل، لكنه يعرفني فيما يبدو. قلتُ بصوت مضطرب خائف متوجس:

«من أنتَ؟ وماذا تريد مني؟».

قال بنبرة ساخرة تموج بالغيظ، وكأني نطقتُ

كفراً: « من أنا؟.. وماذا أريد؟ يا للصفاقة! أتسخر مني، أم أنك قد نسيتَ بهذه السرعة؟ لقد دمّرتَ حياتي أيها الوغد! هل يُنسى من يُدمِّرون حيَوات الآخرين بهذه السرعة؟».

ثم تحوّلت نبرته الساخرة الغاضبة إلى أخرى متوحشة: «حان وقت الحساب».

وفي لحظة، انقضَّ عليّ بحركة سريعة، بينما لمع النصل في يده كبرق خاطف. تراجعتُ إلى الخلف مذعوراً متعثراً بالأرض غير المستوية، محاولاً تجنُّب الضربة القاتلة. شعرتُ باهتزاز النصل وهو يشق الهواء قريباً من وجهي.

صرختُ غريزياً: «هل أنت مجنون؟ من أنت؟! ماذا تريد مني؟!».

لم يُجب، بل انقضَّ مجدداً كوحش جريح. في هذه المرة، بدا الأمر محسوماً، فقد كان النصل يتجه مباشرة نحو صدري!

(2)

تجنبتُ الطعنة بمعجزة، وشعرتُ بحرارة الدم على ذراعي، حيث مرّ النصل على سطح الجلد فأدماه.. لكن هذا لم يكن سوى البداية. عيناه تقدحان شرراً، وثمة عزم مثير للإعجاب فيهما، لا يترك مجالاً للشك بأنه ماضٍ في إنجاز مهمته: قتلي!

هتف بغضب: « كان من المفترض أن أفتك بكَ أول مرة، لكني تجمّدتُ في مكاني كالأبله، إنه خطأ أحاول تصحيحه الآن، بالرغم من أني خسرتْ كل شيء.. كل شيء».

وهنا أدركتُ أنني إما أن أُقاتل أو أموت في هذا الزقاق المنسي بعيداً عن كل من عرفتهم، وكل ما أحببته، وكل ما تمنيتُ كتابته يوماً.

اندفع النصل نحوي مجدداً كالبرق، مصحوباً بزمجرة غاضبة.. شعرتُ بغريزة البقاء تستيقظ في أعماقي، تراجعتُ إلى الخلف، وهناك - على حافة

الرصيف - لمحتُ قطعة خشب بارزة من صندوق مهترئ، التقطتُها بحركة محمومة وأنا أشعر بدقات قلبي تقرع أضلاعي كطبول حرب قديمة.

همستُ لنفسي وأنا أرى الرجل يستعد لهجمة جديدة: «لن أموت هنا». انقضَّ عليَّ بكامل ثقله، لكنّ خوفي الرهيب منحني سرعة لم أعهدها في نفسي من قبل. تجنّبتُ ضربته، ودُرت حول نفسي بحركة أردتها بهلوانية، لكنها أتت بطيئة نوعاً ما، وتتسم بنوع من الخرْق.. لكن ماذا أفعل والرعب يملأ كل خلية في جسدي، وعيناي مفتوحتان على اتساعهما كعينيّ حيوان بري محاصر؟

صرختُ بصوت لم أعرفه من فرط التوتر والانفعال، ومن تأثير الأدرينالين الذي يركض في عروقي: «ابتعد عني!».

لم يستمع. بل انقضَّ مرة أخرى. وهذه المرة خاطرتُ بكل شيء، دفعت جسدي نحوه مباشرة

متجاهلاً الخوف الذي يشلّ عظامي. فوجئ بحركتي غير المتوقعة، ولجزء من الثانية تراجع قليلاً.

كانت هذه فرصتي الوحيدة.

رفعتُ قطعة الخشب بيدين ترتجفان كورقة في مهب الريح، وهويتُ بها على رأسه بكل ما أوتيت من قوة. سمعتُ صوت ارتطام مكتوم، ثم تأوهاً خافتاً. ترنّح الرجل للحظة، وارتخت يده التي تحمل السكين.

لم أنتظر لأرى ما سيحدث بعد ذلك. انقبضت معدتي من الرعب، وشعرتُ بطعم الحموضة في حلقي. استدرتُ بسرعة جنونية، وبدأتُ أركض كما لم أركض في حياتي كلها. كانت أطرافي ترتعش، وأنفاسي تتلاحق بجنون، وصوت نبضات قلبي يطغى على كل ما عداه. وكان تفكيري هناك يصرخ في أعمق أعماقي: «ماذا فعلتُ بالرجل، حتى يتصرف معي هكذا؟».

نظرتُ خلفي للحظة؛ فانزلقت قدمي وكدتُ أسقط. هل هو خلفي؟ هل استعاد وعيه؟ هل سيلحق بي؟ كانت أسئلة الرعب تتصارع في رأسي، وشعرتُ بدوار يجتاحني من الخوف والحركة السريعة.

واصلتُ الركض عبر شوارع ضيقة لا أعرفها، وكأن شياطين الجحيم تطاردني. العرق البارد يغمر وجهي وظهري، ورعشة عنيفة تسري في جسدي كله. بؤبؤا عينيَّ متسعان للغاية في ظلمة الليل، وفمي جاف كالصحراء، وأطرافي تؤلمني من شدة التوتر والخوف.

لمحتُ شارعاً رئيسياً في الأمام، فيه سيارات متناثرة وبعض المارة. دفعتُ نفسي نحوه بآخر ما تبقى لديّ من قوة.

اندفعتُ إلى الشارع المضاء متعثراً بخطواتي، وأنا ألهث كمن قطع سباق ماراثون. نظرات الناس تحوّلت نحوي، لكني لم أعبأ.

رفعتُ يدي ملوحاً لسيارة أجرة تقترب، فتوقّفت بجانبي.

نظر السائق إليّ بريبة وقال: «إلى أين؟».

أخبرتُه بعنواني، وكان من ضمن الأشياء التي استرددتها من ذاكرتي المشوهة، ثم أضفتُ: «فقط أسرعْ، أرجوك!».

انطلقت السيارة في شوارع المدينة، أسندتُ رأسي على النافذة الباردة، محاولاً تجميع شتات أفكاري. ما الذي حدث لي؟ كيف انتهى بي المطاف في ذلك الزقاق؟ ولماذا لا أتذكر شيئاً؟

السؤال الأهم: من فعل بي هذا؟

وإن كان هناك شخص يريد إيذائي، فهل سيحاول مرة أخرى؟

(3)

قطع أفكاري صوت السائق وهو يقول: «لقد وصلنا يا أستاذ».

تنهدتُ بارتياح. جسدي صرخ طالباً الراحة. لن يكون لائقاً أن أفقد وعيي مرة أخرى في الشارع، أو حتى في سيارة الأجرة التي تقلُّني. مددتُ يدي لأُخرج محفظتي. على الأقل ذلك المجرم الغامض قد ترك لي نقودي، فالشكر له. مددتُ يدي بالأجرة، فأمسك السائق بالنقود ودسّها في جيبه.

أوليتهُ ظهري وأكملت طريقي نحو العمارة التي توجد ضمنها شقتي، وشعرتُ بنظراته مسلطة على ظهري، وكأنه يتفحصني بشكل غريب!

سؤال آخر يطرق باب عقلي المشوش: هل من الحكمة أن أعود إلى شقتي؟ لكني مضطر، فقد

تركتُ فيلا أبي منذ أشهر، بعد أن تمرّدتُ عليه وقررتُ أن أعيش بمفردي في تلك الشقة. تحاملتُ على نفسي وأنا أدخل المصعد، وأبتسم للعم حسنين حارس العمارة .. رحَّب بي، وبدأ يتساءل عن سبب غيابي. ليس الآن يا عم. ليس الآن. كانت العمارة التي أسكن فيها تقع في منطقة حديثة نوعاً ما، والحقيقة أنه لا توجد فيها إلا شقتان مستأجرتان فحسب، وبقية الشقق خالية، ولطالما سُررتُ بذلك، حيث الهدوء المطبق، وحيث يمكن لكاتب مثلي أن يُركِّز في عمله.

فتحتُ باب شقتي، الظلام الدامس يرحب بي كعادته. ظلام يشبهني، يشبه حياتي المنعزلة التي اخترتها بإرادتي. أضأتُ المصباح، فانكشف المكان المألوف: أريكة عتيقة بحالة جيدة، ومكتب قديم يحمل جهاز حاسوب محمول، وجدران تغطيها رفوف من الكتب. ربما هذا ما يثير جنون

أهلي، نزعتي إلى البساطة التي تصل إلى حد التقشف!

تمددتُ على الأريكة، وأغمضتُ عينيَّ أريد النوم، ثم حين يأخذ جسدي كفايته منه، سأقوم بطرح كل الأسئلة المُلِّحة على نفسي، وسأبدأ في إيجاد أجوبة لها وأنا في كامل طاقتي، لكن الآن؟ مستحيل طبعاً، وبالرغم من هذا فإن صورة أبي اقتحمت ذهني، جلسته الأخيرة معي في مكتبه الفخم كانت عاصفة.

كان والدي كالبركان، والكلمات تخرج من فمه كالحمم: «هذا جنون يا ساعف! كيف تترك إدارة شركة بهذا الحجم من أجل... من أجل الكتابة؟». ولفظ الكلمة الأخيرة باستهجان، وكأنّ الكتابة قتلت شخصاً من عائلته!

تمتمتُ بإرهاق من كثرة الجدال والمناقشة والأخذ والردّ: «أريد أن أعيش حياتي يا أبي كما أريدها.. أريد أن أُكوِّن نفسي. لقد مللتُ العمل

في الشركة، هذا ليس مكاني الذي أنتمي إليه».

صرخ في وجهي، وهو يكاد يشدُّ شعر رأسه في جنون: «نفسك أيها الأناني! وماذا عن مستقبل الشركة؟ عن مستقبل العائلة؟».

نهضتُ من مكاني معلناً انتهاء النقاش الساخن الذي أصابني بالصداع، قلت بقنوط: «الشركة لديها أخي الأصغر سامر.. أما أنا، فلديَّ أحلامي لأحققها».

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

كان هذا قبل ستة أشهر. منذ ذلك اليوم، قررتْ الانفصال عن حياة العائلة الثرية. استأجرتُ هذه الشقة المتواضعة، وبدأتُ أكتب روايتي الثالثة، التي يرفض أبي حتى قراءة مخطوطتها، فضلاً عن عدم ترحيبه بقراءة أول روايتين، واللتين تلقتا بعض المديح والاستحسان.

أمي تهاتفني سرّاً كل فترة، تقول بصوت حنون: «متى ستعود يا حبيبي؟».

أجيبها دائماً: «حين يتقبَّل أبي اختياري».

وحين كنتُ أقولها كنتُ أشعر بالفخر بنفسي، وكأني شخصية روائية أخرى تشق طريقها في الحياة ببسالة وصمود!

شعرتُ بأنّ كل شيء غريب، كأنني في حلم مخضَّب بالألوان!

(4)

استرخيتُ في جلستي على الأريكة بعد خروجي من المطبخ، وتربّعتُ عليها، ووجدتُني أُحدّق في صورتها الموضوعة في مكان مميز على الجدار. الصورة الوحيدة التي لم أستطع إزالتها بعد. هند... اسم يحمل ذكريات مريرة تشبه طعم القهوة السوداء التي أحتسيها الآن.

همستُ لنفسي: «كنتُ أظنّ أن الحب يكفي».

ضحكتُ ساخراً من نفسي. منذ متى وأنا أتحدث معها هكذا؟ ربما منذ تلك الليلة المشؤومة. كنا نجلس في أحد المقاهي المنتشرة في شارع الخليج العربي. أتذكَّر ذلك اليوم جيداً (السابع من نوفمبر) والليل يُسدل عباءته المعتمة على الموجودات. ثمة شيء مقلق في عينيها الواسعتين، اللتين أوقعتاني في غرامهما.

قالت هند بصوت متردِّد: «أنا آسفة يا ساعف،

لكنني لا أستطيع!».

نظرتُ إليها مستفسراً، وقلبي يخفق: «لا تستطيعين ماذا؟».

أجابت بصوت خافت: «لا أستطيع الزواج من رجل منبوذ من عائلته».

قلتُ بضيق: «منبوذ؟ لماذا هذه اللفظة القبيحة؟ أنا اخترتُ طريقي بنفسي».

همسَت بحرج وهي تشيح بوجهها: «وأنا لا أستطيع السير في هذا الطريق معكَ.. أنا آسفة!».

كان هذا قبل ثلاثة أشهر. اكتشفتُ لاحقاً أنها تخطط للزواج من رجل أعمال ناجح، شخص يستطيع أن يوفّر لها الحياة المترفة التي تحلم بها. حياة لم أكن لأستطيع توفيرها لها بقلمي وأوراقي بطبيعة الحال، إلّا إذا كنتُ فلتة زماني والحظ يخدمني بشكل رهيب. وحتى لو كنتُ

كذلك، فأشك في أن أصل إلى ربع عُشر ما تملكه أسرتي من أموال. تلك مقارنة خاسرة من الأساس. حاولتُ كثيراً أن أُقنعها بأن تتروّى وأن تتذكّر حبنا الكبير، لكنّها لم تكن تُنصت، ولم يرقَ قلبها ولو لمرة واحدة. لم يثب اسم ذلك الغريم إلى ذهني بعد، لكنّه سيثب حتماً. لكن السؤال هنا: هل لكل ما حدث علاقة بماضيَّ؟ بعائلتي؟ بهند؟

فتحتُ الإنترنت في هاتفي المحمول، وبدأتُ أتصفّح المواقع الإخبارية، وقد دوّنتُ اسمي في شريط البحث. ظهر فيديو لأمي وهي تطلب البحث عني، وتُرفق صورتي في أعلى الفيديو، وتكفّلت السوشيال ميديا، وعراقة اسم عائلتي، وشهرة شركاتها بأن ينتشر المقطع ويُشاهد ملايين المرات. لهذا كان السائق يحدّق إليَّ. لا بد أنه شاهد صورتي وسط هذه الحمّى، وبينما نسي عقله الواعي الأمر ترسبت صورتي في

عقله الباطن! شعرتُ بضيق حقيقي، فقد اخترتُ اسمي واسم أبي فقط«ساعف سعيد» من دون استخدام اسم العائلة، لكي أشعر أنني نجحتُ في مجهودي، هذا على افتراض تحقّق هذا النجاح أصلاً. لقد انكشف السرّ الآن، واصلت التصفح.

كلها عناوين تتكلّم عن ساعف سعيد جابر باسم شهرته «ساعف سعيد»، والذي اختفى في ظروف غامضة.

همستُ لنفسي: «مستحيل!».

ما أثار غيظي أن أبي صوَّر فيديو هو الآخر، وقال بأنه لا يقلق عليَّ، وبأنني رجل بالغ، مسؤول عن نفسي وعن قراراتي، وبأنّه رباني على ذلك.

التاريخ يؤكد الحقيقة المرعبة، لقد فقدتُ أسبوعاً كاملاً من حياتي.. أسبوعاً لا أتذكر منه سوى استيقاظي في ذلك الزقاق المظلم!

قلبي يخفق بجنون. أين كنتُ؟ ماذا فعلتُ؟ ولماذا لا أتذكر شيئاً؟

نظرتُ إلى انعكاس وجهي في المرآة، وجه شخص من المفترض أنه في الخامسة والثلاثين من العمر، لكن لماذا أشعر بأن ذلك الوجه قد تقدّم عشر سنوات في العمر على الأقل؟ من أنتَ يا رجل؟ وماذا فعلتَ في الأيام السبعة الماضية؟

رنين الجرس يكسر الصمت المطبق، وجدتني أهرع إلى المطبخ، وبحركة لا إرادية التقطتُ سكيناً ضخمة، أخفيتُها وراء ظهري، وكان الخاطر الذي يسيطر عليَّ في تلك اللحظة أن أُغمد السكين في صدر الطارق!

فتحتُ الباب، وقبضتي مُحكمة على السكين، ثم تراجعت إلى الخلف خطوة وأنا في قمّة اندهاشي.

حسناً، هذا شيء لم أتوقعه!

(5)

فتاة جميلة هي من كانت تقف بالباب بتوتر واضح، وهي تفرك أصابع يديها، وكأنها تبحث عن كلمات مناسبة.

قالت بصوت خافت: «أنا... أنا آسفة على الإزعاج في هذا الوقت!».

نظرتُ إليها نظرات ثاقبة، وقد راحت ذاكرتي المنهكة تعود إليَّ. إنها آيدن، جارتي الخجولة التي تسكن في الشقة المقابلة. الفتاة التي تحمل دائماً كتاباً في يدها، والتي أتبادل التحية معها كل صباح، منذ انتقلتْ للسكن هنا مع أمها الطيبة ذات القدم المبتورة بسبب مرحلة مزمنة متأخرة من مرض السكري.

قالت بارتباك: «رأيتُ الضوء مُناراً في شقتك، وأردتُ أن أطمئن عليكَ».

قلتُ مبتسماً: «أشكركِ على اهتمامكِ يا آنسة،

لكن كيف انتبهتِ إلى غيابي، أنا نفسي لم أنتبه». قلتُها وأنا أُطلق ضحكة متوترة مفتعلة، فبادرتني بأخرى خجولة. آه لو تعلم أنني أقصد المقطع الأخير تماماً. قالت بنبرة تحمل من الحياء ما تحمل:

«كنتُ قلقة عليكَ طوال فترة غيابكَ».

سألتُها باهتمام: «هل معنى هذا أنكِ لم تريني طوال أسبوع؟»

حدّقَت إلى وجهي وقالت بارتباك: «ماذا؟».

ثم أكملت وتجاهلت إجابة سؤالي لسبب ما غامض، وقالت وهي تهزّ رأسها: «لقد سمعتُ صوت المصعد قبل قليل. نظرتُ من العين السحرية، ورأيتكَ تدخل شقتكَ. كنتَ... كنتَ تبدو متعباً، وملابسكَ... ورأسكَ...».

قاطعتُها قائلاً: «آيدن ، هل لاحظتِ أي شيء غريب خلال الأسبوع الماضي؟ أي شخص دخل

شقتي مثلاً؟».

هزّت رأسها نفياً وقالت: «لا... كان كل شيء هادئاً، كأنّ الشقة مهجورة تماماً».

كانت آيدن تُراقبني بقلق واضح.

همسَت بصوت حنون: «هل أنتَ بخير؟ هل تريد أن أُحضر لكَ شيئاً؟».

نظرتُ إلى عينيها القلقتين. لماذا تهتم هكذا؟ نحن مجرد جارين نتبادل التحية صباحاً.

قالت بخجل: «لقد قرأتُ روايتيكَ السابقتين، أحبّ أسلوبكَ في الكتابة. هل هناك رواية جديدة قريباً؟».

بعيداً عن أن ذلك السؤال يُسعِد أي روائي ويُشعِره أن هناك من ينتظر جديدهُ.. لكن

شعرتُ بشيء غريب نحوها، شيء غير محدد المعالم.

***

استيقظتُ من نومي فزعاً، وأنفاسي تتلاحق بجنون، وقطرات العرق تتساقط على وجهي، وقد خرجتُ لتوي من كابوس مرعب حقاً.

ممر طويل حيث كنتُ أركض... أركض بكل ما أوتيتُ من قوة. أضواء النيون الباردة تنعكس على الجدران البيضاء، تجعل ظلي يتراقص في جنون. صوت أنفاسي المتقطعة يتردَّد في الممر، يختلط مع صوت آخر... صوت خطوات ثقيلة خلفي.

لم أجرؤ على النظر خلفي، كنتُ أعرف أنه هناك، ذلك الوحش. أستطيع أن أشمّ رائحته الكريهة، أسمع لهاثه المقزز. كان قريباً... قريباً جداً.

قال صوت في رأسي: «انظُر خلفكَ يا ساعف».

صرختُ: «لا، لن أفعل!».

لكنني نظرتُ وكأني مُرغم على الالتفات، ورأيته: وجه مشوّه، عينان حمراوان متوهجتان، وفم مليء بالأنياب الحادة. ابتسم لي... ابتسامة جعلت

الدم يتجمّد في عروقي.

همس الوحش: «لقد وجدتَ الكتابَ الأعظم أخيراً.. يا لَك من محظوظ!».

استيقظتُ حينها، نظرتُ حولي، كنتُ على الأريكة في شقتي. آيدن غادرت منذ ساعات، الظلام يغمر المكان، والصمت يخنقني.

تحسّستُ رأسي، الجرح ما زال ينبض بألم. تذكرتُ أمي في تلك الساعة المتأخّرة من الليل، راسلتُها وأخبرتها بأني بخير.

راحت الأفكار والتساؤلات تنهشني حتى غِبتُ في نوم عميق، لكن بلا كوابيس هذه المرة.

***

استيقظتُ صباحاً على صوت رنين الهاتف، نظرتُ إلى الشاشة، إنّه رقم أمي، والتي يبدو أنها اتصلت بي عشرات المرات! شعرتُ بالذنب يعتصر قلبي، كان من المفترض أن أتصل بها

حتى لو كان ذلك في ساعة متأخرة من الليل، بدلاً من إرسال عدة كلمات إليها فحسب.

قلتُ بصوت متعب: «صباح الخير يا أمي».

قالت أمي بلهفة مغموسة بدموعها المالحة، التي شعرتُ بها عن بُعْد: «ساعف! حبيبي أين كنتَ؟ كدتُ أجن من القلق عليكَ!».

أغمضتُ عينيَّ بألم وقلتُ: «أنا بخير يا أمي، كنتُ... كنت مشغولاً بعض الشيء».

صرخَت بغيظ: «مشغولٌ بعض الشيء؟! أسبوع كامل لا نعرف عنكَ شيئاً! هل تعرف كم مرة اتصلتُ بكَ؟ حتى أبوكَ...».

قاطعتُها متفاجئاً: «أبي!».

همست أمي: «نعم... كان قلقاً عليكَ، لقد أرسل رجاله للبحث عنكَ في كل مكان».

قلتُ بلهجة هي مزيج من السخرية والمرارة: «والدليل على ذلك الفيديو الذي بثَّهُ، والذي يبدو

فيه أنه غير قلق على الإطلاق».

قالت بلوم:

«لا تُصدِّق كل ما تراه».

وجدتُني أتمتم بخشونة:

«ماذا أصدق إذاً يا أمي؟».

قالت بصوت حنون: «تعالَ إلى البيت يا ساعف، نحن نحتاج إلى أن نراكَ».

أجبتُ بتردد: «لا أستطيع الآن يا أمي، هناك... هناك أشياء يجب أن أفهمها أولاً».

قالت بقلق: «ماذا تعني؟ ساعف، هل أنتَ في مشكلة؟».

قلتُ بارتباك: « لا أعرف.. ربما».

قالت بحزم: «أنا قادمة إليكَ».

نصف ساعة فحسب مضت، حتى سمعت طرقاً على الباب. فتحتُه لأجد أمي تقف أمامي، لم

تستطع الانتظار إذاً.

قالت بصوت مختنق: «كان عليَّ أن أراكَ».

احتضنتها بقوة. شممت عطرها المألوف، رائحة الياسمين التي تعشقها وأعشقها.

«ساعف. أنت تكاد تُحطم ضلوعي يا بني».

أفلتُّها متحرِّجاً، وإن كان كل ملمح فيّ يؤكد سعادتي لرؤيتها. على الأقل أعرف أن حب تلك المرأة لي غير مشروط بشيء، وأنها ستظل تحبني حتى لو تحوّلتُ إلى كومة من تراب!

جلسنا، وراحت تتكلم كثيراً عن خوفها عليَّ وعن اشتياقها البالغ لي، وفي كل كلمة كنتُ أستشعر صدقاً كاملاً، ومع ذلك كان دماغي يرمح في كل واد، ولم أنتبه إلا وهي تُقبِّلني وتنصرف، ولأنها قلما تزورني فقد رافقتها حتى سيارتها. الشارع شبه خال، إلا من بعض السيارات المركونة بالقرب من المقهى الذي يبعد مسافة قصيرة. يمكنني

رؤية أمي وهي تتجه بوقار إلى سيارتها السوداء الفاخرة، والسائق يغادرها. تنقلت عيناي بسرعة من أمي إلى نقطة أخرى.

وسرت قشعريرة باردة في كامل جسدي، وأنا أرى سيارة سوداء تنطلق بسرعة جنونية، تنحرف عن مسارها، تتجه إلينا، مما يؤكد نية صاحبها دهس أمي، أو دهسي أو دهسنا معاً!

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

@N_BHS2

(6)

صرختُ بكل ما أملك من قوة: «أمي!». التفت إليَّ أمي بدهشة، وتمتمت باسمي، وقد بدا أنها لم تنتبه إلى السيارة التي تتحرك بسرعة بالغة متجهة إليها!

ركضتُ نحوها وأنا أصرخ: «ابتعدي!». تجاهلتْ الأعين الفضولية المسلطة عليَّ، وأنا أركز كل حواسي على أمي التي التفتت نحوي، عيناها تتسعان من الخوف. السيارة تقترب.

قفزتُ نحوها، ودفعتُها بعيداً، محتضناً جسدها، بحيث لا تؤذيها السقطة، التي كانت مؤلمة والحق يُقال. تدحرجنا عدة مرات، شعرتُ بحرارة الإسفلت الخشن يخدش جلد ذراعي، لكنني لم أكترث حيث سقطنا معاً على الرصيف.

صوت مكابح، صراخ، ثم صمت.

هتف أحد المارة: «هل أنتما بخير؟».

قالت أمي بصوت متقطع: «نعم... نعم، نحن بخير».

ساعدتُها على النهوض، كانت ترتجف بشدة. احتضنتُها بقوة، وأنا أشم رائحة عطرها المألوف: الياسمين. همستْ في امتنان لم يخلُ من دهشة: «لولاكَ لكنتُ...».

قاطعتُها قائلاً: «لا تفكري في هذا، المهم أنكِ بخير».

صوت محرك السيارة السوداء يهدر فجأة، نظرتُ نحوها لأجدها تتراجع إلى الخلف بسرعة، ثم تنطلق مبتعدة.

صحتُ قائلاً لأمي: «اذهبي إلى المنزل الآن، سأعود إليكِ قريباً».

همستْ بخوف: «ساعف، أرجوك لا...».

لم أنتظر بقية جملتها، انطلقت أركض خلف السيارة التي بدأت تختفي في منعطف قريب.

قدماي تضربان الأرض بقوة، وأنفاسي تتسارع.

يجب أن أعرف من يحاول قتلي أو قتل أمي أو قتلنا معاً، يجب أن أفهم ما يحدث.

انعطفت السيارة يميناً. حاولتُ اللحاق بها، لكنها كانت أسرع. عبرتُ إشارة مرور حمراء، كادت سيارة أخرى تصدمني.

صاح سائق غاضب: «هل جننتَ؟».

تجاهلتُ صراخه. السيارة السوداء تبتعد أكثر، أصبحت مجرد نقطة في الأفق.

توقفتُ ووضعتُ يدي على ركبتي، وأنا ألهث بشدة. لا فائدة.. لقد أفلتت مني!

سقطتُ على ركبتي في منتصف الطريق، صدري يعلو ويهبط بعنف، وعضلات ساقي تصرخ من الألم، قطرات العرق تتساقط على الأسفلت الساخن.

همستُ بإرهاق: «ليس الآن، ليس الآن!».

سيارة تمر بجانبي، سائقها يصيح: «ابتعد عن الطريق أيها المجنون!».

لكنني لم أستطع التحرك، كل شيء يدور من حولي، الشمس تُحرق ظهري، والدوار يجتاح رأسي، الجرح القديم في رأسي بدأ ينبض من جديد.

تمتمتُ في أعماقي؛ إذ إنني لم أعد أملك طاقة للتلفظ بالكلام حتى: «ما الذي يحدث لي؟».

العالم بدأ يتضبَّب أمام عيني، الأصوات تتداخل.. صوت محركات السيارات، صراخ السائقين، كلها تبتعد... تبتعد...

ثم يأتي الظلام العظيم، يصحبه بصيص من نور راح يتعاظم كاشفاً عن نفس الممر الطويل لونه وردي، نفس الإضاءة الباردة المنبعثة من مصابيح النيون. لكن هذه المرة، لم يكن الوحش خلفي، بل كان أمامي.

صرخت في الكابوس: «من أنت؟».

الوحش يقف هناك، في نهاية الممر، عيناه الحمراوان تتوهجان في الظلام، ابتسامته المرعبة تكشف عن صف من الأنياب الحادة.

قال بصوت عميق: «أنت تعرف من أنا».

تراجعتُ إلى الخلف، ثمة شيء في صوته... شيء مألوف.

الوحش يقترب، خطواته الثقيلة تهزّ أرضية الممر، رائحته الكريهة تملأ أنفي.

همس: «انظُر إلى يدكَ».

نظرت، فإذا بيدي تتحول، لتصبح مثل يده: عظمية، مغطاة بجلد أزرق جاف.

صرخت في رعب: «لا... لا!».

ضحك الوحش: «الأمر قد بدأ يا ساعف، لا تُقاوم».

ثم أنشب مخالبه في عنقي!

(7)

فتحتُ عينيَّ بغتة وأنا أصرخ، لا وحش هنالك!. كنتُ راقداً على فراش وثير. السقف مُزيَّن بنقوش ذهبية مألوفة جداً، كنتُ في غرفتي القديمة في فيلا أبي!

نهضتُ متكئاً على مرفقي، لم أكن وحدي في الغرفة، كان أبي بنفسه يجلس بجواري، ونظرة نارية تندلع من عينيه.

صاح بغضب: «كيف تركتَ أمكَ تتعرض للخطر؟».

حاولتُ الرد، لكنّ رأسي كان يؤلمني بشدة.

دخلت أمى الغرفة فى تلك اللحظة لحسن الحظ، وقالت بحدة: «كفى يا سعيد! ابنكَ أنقذ حياتي».

هتف أبي: «كان يجب أن يمنع الحادث منذ البداية، كان يجب...».

قاطعته أمي بغضب: «كيف له أن يعرف؟ هل هو عرَّاف؟».

تنهَّد أبي بإرهاق: «حسناً.. حسناً، المهم أنك بخير».

همست أمي: «ساعف حبيبي، هل تريد شيئاً؟».

هززتُ رأسي نفياً، كل ما أريده الآن هو فهم ما يحدث، كان من الغباء أن أسأل كيف أُحضرتْ إلى هنا، فمن الواضح أني قد فقدتُ الوعي في الشارع، ولم يكن من الصعب بعدئذ أن أُحمل إلى هنا، خاصة وأنّ أمي لم تكن بعيدة عني كثيراً، والتي أصرَّت على أن أتناول الطعام، وكانت تُطعمني بيدها برغم اعتراضي. لم يكن اعتراضاً قوياً، فقد كنتُ متعباً، ثم إنه من اللطيف أن يتذكر المرء شعوره وهو طفل، حين كان محور الكون بالنسبة إلى والديه. لقد ولّت تلك الأيام، لكنّ لمحة مستعادة منها كفيلة ببعث السعادة في قلبي. انصرفت والدتي وهي تحمل بقايا الطعام القليلة، بعد أن ملأت معدتي.

ولم أخلُ بنفسي كثيراً، فقد انفتح الباب،

ليدخل سامر.

قال بمرح وهو يحتضنني:

«ما زلتَ على قيد الحياة أيها الوغد!».

سامر يتحدث بانطلاق من دون توقُّف كعادته، وهو يحكي لي عن شقته الجديدة التي انتقل إليها مؤخراً، وقال ساخراً بأنه يسير على خطاي، بينما تجاهلتُ رنة السخرية هذه وأنا أُحدِّق إلى السقف.

صوت سامر المشبَع بالضيق ينتشلني: «ساعف، هل أنتَ شارد؟ هل أنا مُمل إلى هذه الدرجة؟».

منحتُه ابتسامة خاوية، ولم أُحِر جواباً.

***

دخلتُ غرفة الطعام في القصر، وكانت المائدة معدّة كالعادة بأطباق فضية وبأوانٍ كريستالية تعكس ضوء الثريات المتلألئة، وتذكّرتُ شقتي المتواضعة، وشعرتُ بالفخر بنفسي، لقدرتي على

اتخاذ قرار بمغادرة هذا النعيم وتنفيذه بحسم.

وجدتُ أبي جالساً على رأس الطاولة بوجهه الجامد الصارم، ممسكاً بجريدته المهتمة بأمور المال والاقتصاد. كان من الطراز القديم الذي لا يهتم بقراءة الإنترنت أو بتصفح شبكات التواصل الاجتماعية، وقته من ذهب حرفياً.

رفع عينيه نحوي، وقال بصوت جاف: «أخيراً تنازلتَ عن كبريائكَ، وعدتَ إلى بيتكَ».

تنهدتُ بضجر وجلستُ على المقعد المقابل له. قلتُ بهدوء مفتعل: «لم أعُد إلى البيت كما تظن يا أبي».

وضع الجريدة جانباً، وقال وهو يقطِّب جبينه: «ألستَ هنا حالياً؟ كان من المفترض أن أستيقظ وأجدكَ قد انصرفتَ.. فما معنى مكوثكَ حتى الآن إذاً؟».

شعرتُ بمرارة في حلقي، أيُّ أبٍ هذا؟

ومع ذلك فقد أجبتُه، وأنا أتجنّب النظر في عينيه مباشرة: «وجودي هنا مؤقت حتى أفهم ما يحدث».

كان سيردّ بحدته المعتادة، لكن صوت أمي قطع حبل التوتر الممتد بيننا: «صباح الخير يا حبيبي».

ابتسمتُ لها وأنا أرى الفرحة تتلألأ في عينيها: «صباح الياسمين يا أمي».

انحنت وقبّلت رأسي: «كم اشتقنا إليكَ يا ولدي!». ثم جلسَت إلى جانبي، وبدأت تملأ طبقي بالطعام كأنني ما زلت طفلاً صغيراً. نظرتُ إلى أبي لأرى أثر هذا الشوق الذي تتحدث عنه على صفحة وجهه، فلم أجد. هل تقصد هي وسامر مثلاً؟

سألتني بحنان: «هل نمتَ جيداً؟».

قلتُ وأنا أحاول إخفاء اضطرابي: «نعم، شكراً لكِ».

كذبة بيضاء لم تخدع أمي التي تعرف كل تعابير وجهي، لكنها لم تُعلِّق. بينما كان أبي يراقبني بنظرة فاحصة، كأنه يحاول سبر أغوار روحي.

دخل سامر في تلك اللحظة، وصاح مبتهجاً: «عائلة الجابري مجتمعة على مائدة الإفطار! هذا حدث تاريخي يستحق التوثيق!».

ضحكت أمي بمرح، بينما هزَّ أبي رأسه هازئاً من خفة دم ابنه الأصغر. جلس سامر بجانب أبي، وبدأ يملأ طبقه بكميات مهولة من الطعام.

ثم نظر صوبي ليسألني عن المكتبة التي تُزيِّن غرفتي : سأنقلها إلى شقتي الجديدة، يبدو أنك مستعد للتخلي عنها، كونك لم تأخذها معك عندما رحلت.

نظرتُ إليه: روحُ القارئ مكتبتُه..

ابتلعتُ لقمتي لأُكمل: سأقوم بشراء كتب جديدة لكَ، ستكون هدية وأيضاً متعة لي، فأنا

مستعد للمبيت في أي مكتبة أراها.

(لم أكن أود القول لسامر بأنه ليس هناك مكان لمكتبتي الكبيرة في شقتي المتواضعة)

قاطع حوارنا أبي الذي قال لسامر فجأة: «لدينا اجتماع هام مع شركة العمري اليوم يا سامر».

رفع سامر عينيه عن طبقه وسأل: «ألم نؤجِّله إلى الأسبوع القادم؟».

هزّ أبي رأسه نفياً: «لقد أصرّوا على عقده اليوم، يبدو أن لديهم عرضاً جديداً».

شعرتُ بقشعريرة باردة تسري في جسدي لدى سماع اسم العمري، وثب أخيراً اسم راشد العمري إلى ذهني، فهو غريمي الذي اختارته هند لتتزوجه!

طِبعاً هذه نقطة لا تهمّ أبي وأخي كثيراً، فهما يريان بِأن زيجتي بهند مقدّر لها الفشل منذ البداية، ولطالما حذّراني بأنّ هند متسلقة

وصولية، وجمالها الفتّان هو ذخيرتها في تحقيق ذلك. لكن مرآة الحب عمياء كما يقولون، فقد هويتُ في حفرة حبها إلى الحدِّ الأقصى، مراهناً على أنّها تحبّني، وستتقبّل انفصالي المادي عن عائلتي، لكن سقط قناعها بغتة من دون مقدمات حتى، وبدت من تحته ملامحها الحقيقية! ربما هذا هو السبب الذي جعلني أطلب مقابلة راشد، وأنا أهمُّ بالفتك به. وفجأة انتصب الشعر في مؤخرة رأسي. لقد...

لقد تذكَّرت، ويا لهولِ ما تذكرت!

كتمتُ انفعالاتي بقدر المستطاع، وأنا أتناول طعامي بصمت، ثم استأذنتُ بالانصراف متجاهلاً نظرات أبي الخاوية، وتوسُّلات أمي بالمكوث، ودهشة سامر المتعجلة قبل أن ينصرف. أريد أن أخلو بنفسي، فما تذكّرته كان مرعباً، ويُجمِّد الدم في العروق!

(8)

الحقيقة أنَّ ذهني كان شارداً، حتى وأنا أغادر فيلا أبي وأتوجّه إلى شقتي. ارتميتُ على أريكة شقتي، وجسدي ينتفض من الإرهاق. أنفاسي ما زالت تتسارع، وقميصي مبلل بعرق بارد يلتصق بظهري. أغمضتُ عينيَّ محاولاً استعادة هدوئي، لكنّ صورة ذلك النصل المتوهِّج في الظلام ترفض مغادرة مخيلتي.

فجأة، ومثل شظايا زجاج مهشمة تجتمع لتشكل صورة كاملة، بدأت ذاكرتي تستعيد أحداثاً غامضة. صور متقطعة تومض في رأسي كشاشة تلفاز معطوب تتناثر شراراته الإستاتيكية على سطحه الأملس... صراخ... شجار... ثم الظلام.

همستُ لنفسي وأنا أتحسّس الجرح في رأسي:

«راشد... راشد العمري!، إذن فهو أنت!».

استقام جسدي فجأة، وكأنّ صدمة كهربائية

سرت فيه. نعم، كنتُ قد قابلتُ راشد العمري! تذكرتُ الآن. قبل أسبوع من الآن، في تلك المنطقة الخالية داخل المستودعات القديمة.

بدأت تفاصيل المشهد تتضح في ذهني المشوش، كنتُ قد ذهبتُ إليه بعدما علمتُ من هند بأمر مقابلاتهما العاطفية، وأنا مَن اخترتْ منطقة المستودع القديم، حيث يمكن لصراخنا أن يصل إلى السماء، من دون أن أهتم لأمر اختراق خصوصيتي!

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

أمسكتُ رأسي بين يديَّ، والمشهد يتضح أكثر. أنا واقف أمام راشد في ذلك المكان المقفر. الغضب يُعمي بصيرتي، والغيرة تأكل قلبي. نعم... الآن أتذكَّر!

كنتُ أصرخ في وجهه والدماء تغلي في عروقي:

«أنتَ تلاحقها بأموالكَ، تستغل طموحها، تستميلها إليكَ!».

2675565132

وقف راشد أمامي، رجل في الثلاثينات من عمره، بقامة فارعة وبوجه وسيم يشع ثقة وسلطة. نظر إليَّ ببرودٍ استفزازي وقال: «أمِن أجل هذا طلبتَ مقابلتي في هذا المكان؟ أمِن أجل أن توبخني؟».

كنتُ أضطرم غيظاً، تكوّنت على شفتيه ابتسامة ساخرة: «ما الأمر يا كاتبنا الفاشل؟ أتخشى أن ترى حبيبتكَ تنجذب إلى رجل ناجح؟».

صرختُ فيه بغيظ عارم، ممتنّاً لاختياري ذلك المكان بالذات، حيث يمكن لصراخي أن يصل إلى أبعد مدى من دون أن ينتبه أحد: «ابتعد عنها! هي ليست إحدى نسائكَ اللواتي تشتريهن بأموالكَ!».

اتسعت ابتسامة راشد الساخرة، وبدت متعارضة مع هدوئه المستفز وهو يقول: «هند فتاة عاقلة تعرف مصلحتها. هي من تواصلت معي بشأن مشروعٍ تريد أن تقيمه، وهي من طلبت مقابلتي،

ثم تطوّرت الأمور بيننا، ونَمَت زهرة الحب في قلبينا».

تصاعد الغضب داخلي كنار تلتهم الهشيم، اندفعت نحوه وأنا أصرخ: «أنتَ كاذب! أنتَ تلاحقها وتضغط عليها!».

حاول صدِّي بيده، لكنني كنتُ أسرع. أمسكتُ بياقة ثوبه الفاخر، وشددته نحوي. فوجئتُ بقوته حين دفعني إلى الخلف بعنف، فتعثرتُ وسقطتُ على الأرض.

بدأ راشد ينفض عن ملابسه غبار الشجار، ثم قال بنبرة تقطر تهديداً: «أنتَ لا تدري أي حماقات ترتكب يا هذا. أنتَ مجرد رجل متمرِّد على أبيكَ، تظن نفسكَ شجاعاً، لكني أعرف أي جبان أنتَ!».

أخذتُ أتنفّس بصعوبة والغضب يعمي بصيرتي، صرختُ: «لن تقترب منها مجدداً!، أتفهم؟!».

ضحك باستمتاع، ثم قال: «هي مَن أتت إليَّ،

فقد تركت عالمكَ السخيف بإرادتها». قال جملته الأخيرة، ثم استدار ليغادر.

لم أستطع تحمُّل تلك النبرة المتعالية، تلك الثقة المطلقة في قدرته على أخذ ما يريد متى يشاء. اندفعتُ نحوه من الخلف بجنون أعمى، ثم وجدتُه يلتفت إليَّ بعينين مشتعلتين بالغضب، ثم انفجر شيء في مؤخرة رأسي.

وبعدها... ساد فراغ عظيم، حيث لا أتذكر ما حدث بعد ذلك!

هل كان معه أحد ضربني من الخلف؟ أم أن شيئاً قد سقط من أعلى وارتطم برأسي؟

شعرتُ برعشة باردة تسري في جسدي، إن كان راشد العمري هو مَن يطاردني الآن... فهذا يعني أنني في مشكلة كبيرة. رجل بنفوذه وماله لن يتوقف حتى ينتقم لكرامته الجريحة، بالرغم من أن عائلتي ليست بالهينة أيضاً. هل أشعلتُ حرباً من دون أن أدري؟

رفعتُ هاتفي بيد مرتعشة، يجب أن أتصل بهند، أحتاج إلى معرفة الحقيقة كاملة.

ثم صكَّ سمعي صوت جرس الباب.

(9)

ترددتُ قبل أن أفتح الباب، القلق يعتصر قلبي، وأصابعي ترتجف على مقبض الباب. مليون سيناريو في ذهني المحموم: هل هو راشد قد أتى ليُنهي ما بدأه؟ أم أنه أحد رجاله؟

تنفستُ بعمق، وتذكرتُ أنه ليس لديّ ما أخسره أكثر ممّا خسرتُ بالفعل. فقدتُ أسبوعاً من حياتي، فقدتُ ذاكرتي، وكدتُ أفقد روحي.

همستُ لنفسي: «مَن الذي تخاف منه يا ساعف؟». فتحتُ الباب بحركة مفاجئة مستعداً لمواجهة ما ينتظرني على الجانب الآخر. وقفة دفاعية تلقائية، وقبضتاي مشدودتان استعداداً للقتال.

لكنّ الشخص الذي وقف أمامي لم يكن من توقعته.

رجل في منتصف الأربعينيات، بطول متوسط،

وببنية نحيلة، ترتسم على وجهه تجاعيد عميقة، ويضع نظارة طبية. شعره المنسَّق بدقة لا يُخفي الشيب المتسلل إليه، ويحمل حقيبة جلدية صغيرة.

قال الرجل بصوت هادئ: «السلام عليكم يا أستاذ ساعف».

بقيتُ واقفاً في مكاني، أحدّق في وجهه الذي لا يبدو مألوفاً، ومع ذلك شعرتُ بقشعريرة غريبة، وكأنّ شيئاً ما في أعماقي يعرفه. رددتُ السلام، ثم سألته بحذر: «من أنتَ؟».

تنهد بإرهاق واضح: «أنا الدكتور حبيب، إنكَ لا تتذكرني على ما يبدو».

«هل يفترض بي أن أتذكركَ؟».

ابتسم ابتسامة باهتة، وقال: «ألا تسمح لي بالدخول؟ ما علينا مناقشته من غير المناسب الخوض فيه أمام الباب».

ترددتُ للحظة، ثم تنحيتُ جانباً، وقلتُ بتوجُّس: «تفضل».

دخل زائري إلى شقتي، تأمّل المكان بنظرة سريعة، ثم توجّه مباشرة نحو الأريكة وجلس عليها بإعياء ظاهر، كشخص يحمل على كتفيه أثقالاً تتجاوز قدرته.

أغلقتُ الباب وبقيتُ واقفاً أمامه، غير مستعد للجلوس.

قال الدكتور حبيب: «أعلم أنكَ في دوامة من الغموض المجنون، الذي قد يبدو من المستحيل حله. لقد جئتُ لأساعدكَ».

تقلّصت معدتي بتوتر، قلتُ بحدة: «كيف عرفتَ ما أعاني منه؟».

«لأنني كنتُ هناك، في المستودع القديم».

شعرتُ بصدمة كهربائية تسري في جسدي كله، فوجئتُ بنفسي أتقدّم نحوه، عيناي لا تفارقان

وجهه، وقلتُ بصوت خافت: «المستودع... لقد تذكرتُ أخيراً ماذا حدث هناك».

هزّ رأسه مؤكداً: «نعم. مشاجرتكَ مع راشد العمري».

ازدادت ضربات قلبي تسارعاً، وشعرتُ بالعرق البارد يتسلّل من فروة رأسي إلى ظهري، تراجعتُ خطوة إلى الخلف برهبة.

تنهّد الدكتور حبيب مرة أخرى: «عليكَ أن تجلس، فما سأخبركَ به قد يكون صادماً».

أذعنتُ هذه المرة، وجلستُ على حافة المقعد المقابل له، متوتراً. رجل يقدم لي الحقيقة على طبق من ذهب يستحق مني أن أستمع إليه.

قال حبيب: «كنتُ في المستودع ليلة مشاجرتكَ مع راشد، كنتُ... كنتُ أراقبه منذ فترة».

سألته بعصبية: «تراقبه؟ لماذا؟».

أشاح بوجهه، وقد بانت علامات المقت على

وجهه: «لأسباب شخصية. المهم، شهدتُ المشاجرة بينكما، رأيتُ كيف اندفعتَ نحوه بغضب، وكيف حاول صدّكَ، ثم...».

توقّف وكأنه يستجمع قواه، ثم أكمل: «ثم سقطتَ أرضاً فاقداً الوعي، بفعل ضربة قوية في مؤخرة رأسكَ».

سألته بتوتر: «هل راشد هو مَن ضربني؟».

هزّ رأسه نفياً: «لا، لقد كان أمامكَ، فكيف يضربكَ من الخلف؟ الأمر ببساطة أنه قد سقط عليك جزء من عارضة خشبية متهالكة. المؤسف أن راشد قد انصرف فور سقوطكَ ببرود، ولم يتأكّد حتى إن كنتَ على قيد الحياة أم لا. لكن هذا غير مستغرب من وغد مثله، لقد تركَكَ بكل هدوء وتوجَّه نحو سيارته الفاخرة الزرقاء. وقبل أن يدخل السيارة تأمّل المستودع لبرهة، وهو يدخن سيجاره الكوبي الفاخر، ثم انصرف».

شعرتُ بشيء من الارتياح. إذا لم يكن راشد من

يطاردني! فمن يكون إذاً؟

سألني الدكتور حبيب: «هل تتذكر شيئاً ممّا حدث بعد ذلك؟».

أجبتُه: «لا أتذكّر شيئاً، ما أذكره فقط هو أنني استيقظت في زقاق مظلم منذ ثلاثة أيام.. لا شيء قبل ذلك».

قال الدكتور حبيب: «بعد هروب راشد، خرجتُ من مخبئي، كنتُ خائفاً في البداية، لكنني طبيب.. لا يمكنني ترك شخص جريح. حملتكَ إلى سيارتي، ثم أخذتكَ إلى عيادتي».

حدقتُ إليه بدهشة بينما كان يكمل حديثه: «كان الجرح في رأسكَ عميقاً، وقد تسبَّب في نزيف حادّ. قمتُ بتنظيفه وخياطته، لكن لم أرسلكَ إلى المستشفى، وهذا خطأ ارتكبته. كنتُ.. كنتُ أخشى التورط. ففي مسألة مشاجرة في مستودع مهجور، قد تبدو الأمور معقدة كما تعلم».

قلتُ بضيق: «لكنكَ تركتَني في زقاق مظلم!».

هزّ رأسه بقوة وقال: «لا.. لا، هذا ليس من فعلي. أنتَ هربتَ من العيادة بعد أن أصابتكَ نوبة من الهياج. لكن... حدث شيء غريب قبل هروبكَ».

سألتُه بفضول: «ما الذي حدث؟».

شبك الدكتور حبيب أصابعه ببعضها، وقال: «عندما استعدتَ وعيكَ في العيادة، كنتَ تهذي بكلام غير مترابط، ثم فجأة... أمسكتَ بيدي بقوة، ونظرتَ إليَّ بعينين غريبتين، وكأنّهما تنتميان إلى شخص آخر. وقلتَ لي: «أنتَ لستَ السبب في موت زوجتكَ. توقّف عن تعذيب نفسكَ، واهتمّ بابنتكَ قبل أن تفقدها هي الأخرى».

شعرتُ بقشعريرة تسري في جسدي، قلتُ بصوت مضطرب: «أأنا... قلتُ هذا؟».

«نعم».

ثم أضاف وهو يحدّق إليَّ: «وما أدهشني أنَّ زوجتي قد ماتت قبل أشهر قلائل في حادث سيارة. كنتُ أنا السائق، ولطالما لمتُ نفسي. كيف علمتَ أنتَ بذلك؟».

حدَّقتُ إليه بارتباك، قلتُ بصدق: «لا أعلم، لا أتذكّر أي شيء من هذا!. وكيف لي أن أعرف أخباراً عن زوجتك أصلاً؟».

«هذا ما يحيِّرني، لكن الأكثر غرابة هو كيفية نطقكَ بتفاصيل عن الحادث لم أخبر بها أحداً. لقد وصفتَ المنعطف الخطير، ولون السيارة التي صدمتني».

شعرت برجفة تجتاح جسدي، إذا كان ما يقوله صحيحاً، فكيف عرفتُ كل هذه التفاصيل؟

سألته بصوت خافت: «على افتراض أني أصدقكَ، فما تفسيركَ لهذا؟».

أخذ الدكتور حبيب نفساً عميقاً، ثم قال: «لديَّ

نظرية مجنونة بعض الشيء، وهي أقرب إلى العلوم الزائفة، أو حتى تهويمات الفلاسفة والأدباء. الإصابة التي تعرضتَ لها، والصدمة في منطقة معينة من دماغكَ قد تكون فعّلت ما يُعرف بالسجلات الأكاشية».

كررتُ الإيماء بعدم فهم:

«السجلات الأكاشية؟».

«نعم».

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

ثم وضع حقيبته على المنضدة، وأخرج منها كتاباً، فتحه على صفحة محددة.

«في بعض الفلسفات الروحية القديمة، هناك اعتقاد بوجود مجال من المعلومات يحيط بكوكبنا، يحوي كل ما حدث أو سيحدث. كل فكرة، كل شعور، كل حدث... كلها مسجلة في هذا المجال».

قلتُ بسخرية: «هذا يبدو كخرافة».

ارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة وهو يقول: «ربما.. لكن يُقال بظهور حالات لدى بعض الأشخاص بعد تعرضهم لإصابات دماغية معينة، استطاعوا على إثرها تذكُّر تفاصيل لم يعيشوها شخصياً، أي أنها معلومات لا يمكن أن تكون في ذاكرتهم».

سألتُه بتشكك: «وهل تظن أنتَ أنني أُصِبتُ بهذه الحالة؟».

«إصابتكَ كانت في منطقة اللوزة الدماغية والحصين، المرتبطتين بالذاكرة والمشاعر. في بعض الدراسات، وجدوا أن تلك المنطقة قد تكون ‘هوائيَ استقبال’ محتمل لهذه المعلومات».

«لكن هذا يعني...».

توقفتُ عن إكمال الجملة، مدركاً الاحتمالات المرعبة لما يقوله لو صحّ ذلك. ويبدو بأن الدكتور حبيب قد أدرك ما يجول في خاطري، وهو يقول مؤكداً:

«نعم، قد تكون قادراً على معرفة تفاصيل عن أشخاص لم تلتقِ بهم من قبل. الأمر أشبه بجهاز راديو، معظمنا مضبوط على تردد واحد هو (حياتنا نحن). لكن إصابتكَ جعلت دماغكَ يلتقط ترددات أخرى، معلومات من هذا المجال الأكاشي».

شعرتُ بدوار مفاجئ، كان هذا كثيراً عليّ. هل يمكن أن يكون هذا حقيقياً؟ أم أن الرجل مجنون؟

لكنه أكمل: « بعد أن أخبرتَني بكل تلك التفاصيل عن زوجتي، غرقتَ في نوم عميق. وحين استيقظتَ بعد ساعات، بدأتَ تتصرف بغرابة، كأنك شخص آخر تماماً».

«ماذا تعني؟».

«تغيّرت نبرة صوتكَ، تغيّرت تعابير وجهكَ، بدأت تتحدث عن أشياء لم تحدث بعد. قلتَ إنّ هناك خطراً يتربص بكَ، ثم... هربتَ من العيادة. هذا كان قبل تسعة أيام».

همستُ بصوت مرتجف: «تسعة أيام؟! اخصم منها ثلاثة تتبقَ ستة.. أين كنتُ خلالها؟».

هزّ الدكتور حبيب كتفيه: «لا أعلم، لكنني كنتُ قلقاً عليكَ. لقد بحثتُ عنكَ في كل مكان، حتى رأيتُ خبر عودتكَ منشوراً في الصحف».

ثم أضاف بجدية: « أعتقد أنّ ما يحدث لكَ ليس طبيعياً. لا أدّعي فهم كل شيء، لكنني أعتقد أنّ إصابتكَ فتحت باباً... باباً لم يكن من المفترض أن يُفتح».

الأفكار تتصارع بداخلي، هل ما يقوله هذا الرجل حقيقي؟ هل أصبحتُ قادراً على قراءة أفكار الآخرين، وعلى معرفة أسرارهم؟

لكن هذا لا يكشف مَن حاول قتلي، مَن حاول دهس أمي.

سألته بحدة: «لماذا جئتَ إليَّ الآن؟».

تردَّد الدكتور حبيب، ثم قال: «حين رأيتُ خبر

عودتكَ وظهورك مجدداً، كاد الفضول يقتلني. هل الأمر ما زال مستمراً معكَ؟».

قلتُ بحذر: «أتقصد...؟».

أومأ برأسه:

«نعم، أقصد هذه الرؤى. هل ما زالت السجلات الأكاشية مفتوحة؟».

قلتُ بضيق:

«لا، ومن الأفضل أنّها كذلك. ما يسبب ذعري حقاً هو أنّني لا أتذكر تلك الأيام المفقودة».

قال باهتمام:

«هذا أمر طبيعي، لكن غير الطبيعي هو أن تُفعَّل السجلات الأكاشية طوال فترة قصيرة، ثم تخمد مرة أخرى».

قلتُ له بضيق:

«على أساس أنّ ما تقوله يدخل في نطاق

العلم الصارم المحكوم بقواعد! فقد كنت تتكلم منذ قليل عن أنه أقرب إلى العلوم الزائفة وإلى تهويمات الأدباء والفلاسفة».

احمرت أذناه خجلاً، سَرَّني هذا، ثم قلتُ بعد هنيهة:

«الأهم من ذلك كله: ما الذي فعلتُه طوال تلك الفترة، فيبدو أنني قد تسببتُ في تدمير حيَوات البعض».

«ماذا تعني؟».

حكيتُ له حكاية الرجل الذي حاول قتلي في الزقاق، فبدا عليه القلق. قال:

«يبدو أن صاحبنا في حالة عدم استقرار نفسي، احذر منه».

قلتُ بغيظ:

«لا أتذكر ما فعلته به، لكن مهما فعلت فإن هذا لا يُبرر قتله لي».

فجأة تناهى إلى أسماعنا صوت خطوات داخل شقتي!

وانتصب الشعر على ذراعيَّ، يبدو أننا اثنان، وثمة ثالث ها هنا!

(10)

يا لي من شارد أحمق!

يوجد شخص آخر هنا غيري وغير الدكتور حبيب! لكن كيف؟ تذكرتُ بغتة، لقد رافقتُ أمي إلى الخارج، ولم أنتبه وأنا أغادر إلى أني تركتُ الباب مواربًا. وبما أن العمارة شبه خالية، فلم ينتبه أحد. لا بد أن المقتحم المجهول محظوظ إلى أقصى حدّ، فقد أتى ووجد الشقة مفتوحة، لكن لا بد أنه قد صُدِم عند رؤية محتوياتها التي لا تستأهل وقته وجهده.. ماذا؟ هل انتظرَ حتى يسرق مني مدَّخراتي الشخصية؟ لا، لستُ أنا الأحمق بل هو! لا بد من أن أغلق الباب من الداخل، فحين أتيتُ من فيلا أبي لم أنتبه إلى شيء بدوري.

انفتح باب غرفتي بعنف، وبرز المقتحم المجهول!

بشرة سمراء، وشعر أسود كثيف، وعينان مشتعلتان بالكراهية.

سأل الدكتور حبيب: «من أنتَ؟».

تراجعتُ إلى الخلف، بحثاً عن أي شيء يمكن استخدامه كسلاح. في عقلي صور متسارعة تحاول الترابط مع بعضها، ثمة شيء مألوف في ملامح هذا الرجل وصوته.

قال الرجل بنبرة مليئة بالغضب، وهو يغلق الباب خلفه: «لم تتوقع أن أجدكَ مرة أخرى، أليس كذلك؟».

وضحك:

«السجلات الأكاشية؟ يا لَه من هراء!».

قلتُ وقد عرفتُه: «هل أنتَ من هاجمني في الزقاق؟ أخبرتُكَ إنني لا أعرف ماذا فعلت بكَ».

ضحك بمرارة: «أما زلت تلعب دور فاقد الذاكرة؟ دعني أذكِّرك إذاً. أنا نعيم. نعيم الحمد، الرجل

الذي دمَّرتَ حياته!».

لسبب ما- وحين رأيتُ وجهه في نور الشمس- شعرتُ بدوامة تجتاح رأسي، وبصور باهتة ضبابية تحاول الظهور في ذهني: حديقة عامة، أطفال يضحكون، وجه امرأة مفزوعة.

صاح الدكتور حبيب بتوتر: «هل هو ذلك الرجل؟».

لم أُجب، واكتفيتُ بهزة من رأسي.

اقترب نعيم منا ببطء مُهدِّداً، وعيناه لا تفارقان وجهي، وبدا أنّ لديه تصميماً هائلاً على الانتقام مني.

شعر الدكتور حبيب بالخطر المحدق، وقال وهو يقف بيننا: «توقف! لا تقترب!».

لكنّ نعيم دفعهُ جانباً بحركة قوية، فسقط الدكتور على الأرض. تحرّكت غريزة البقاء في داخلي، قفزتُ نحو المطبخ، وأمسكتُ أول شيء

وصلت إليه يدي.. سكين.

انقضَّ عليَّ نعيم، وأنا أصرخ: «توقّف! أنا لا أتذكرك! لا أعرف ماذا فعلت!».

توقّف للحظة، وعلى وجهه نظرة استنكار. قال: «ألا تتذكرني؟ هل تظن أنني سأصدق هذا الهراء؟ أنتَ ساعف سعيد ، الرجل الذي دمّر عائلتي!».

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

لم أعد قادراً على التراجع أكثر، ظهري ملتصق بالجدار. قلتُ بصدق: «أنا فعلاً لا أتذكر! تعرّضتُ إلى إصابة في رأسي، ففقدتُ ذاكرتي».

ثار نعيم وهتف: «هل فقدتَ ذاكرتكَ؟ وماذا عنّي؟ لقد فقدتهم جميعاً بسببكَ!».

شعرتُ بالغثيان يجتاحني فجأة!. رغم هذيان الرجل، هناك حقيقة مُرَّة في كلامه، وثمة رنين صدق أُحسّه. على الجانب الآخر، كان الدكتور حبيب يحاول النهوض، ويده تبحث عن هاتفه - على

الأرجح - ليطلب النجدة.

رفعتُ يدي محاولاً تهدئة الموقف: «حسناً، دعني أفهم.. ماذا فعلت لكَ بالضبط؟».

هدأت ثورة نعيم قليلاً، قال بصوت أجش: «ألا تتذكّر حقاً؟ حديقة الأحمدي منذ خمسة أيام».

اخترقت ذاكرتي فجأة صورة واضحة هذه المرة تخلو من الضبابية: متنزه عام، عائلات تجلس على العشب، أطفال يركضون، ضحكات تملأ المكان. كنتُ أمشي وحيداً شارداً مهموماً، وحالة هند تسيطر على تفكيري، برغم الظرف الدقيق الذي أنا فيه.

ثم تعثرتُ.. سقطتُ أرضاً. وأثناء سقوطي، لمستُ يد رجل كان يجلس على العشب مع أطفاله.

نعيم!

عيناي تتسعان بذهول، بدأتُ أتذكّر ما حدث!،

همستُ: «الحديقة... نعم، كنتُ هناك».

ضحك نعيم بمرارة: «أخيراً تتذكر! نعم، كنتَ تمشي كالمخمور، تعثرتَ وسقطتَ بالقرب منا. كنتُ مع زوجتي وابنتي، نقضي يوم جمعةٍ سعيداً، ثم وقعت كارثتي!».

سادت لحظة صمت مشحونة بالتوتر.

ثم قال نعيم بصوت ممزوج بالألم والغضب: «فجأة، كغراب البين، استيقظتَ من سقطتكَ، ونظرت إليَّ بعينين غريبتين، ثم بدأتَ تتكلم.. تتكلم عن البيت الذي أمتلكه في منطقة المنقف، وعن زوجتي الثانية ناهد».

تذكرتُ نظرة الرعب التي ارتسمت على وجه الزوجة الأولى، واستمر نعيم: «زوجتي الأولى نورة كانت تجلس هناك، تستمع إلى كل كلمة، بينما كانت تفاصيل حياتي المزدوجة تُكشف أمامها في دقائق معدودة. كيف عرفتَ كل هذا؟ كيف عرفتَ أسرار حياتي التي أخفيتُها لسنوات

بمهارة بالغة؟».

شعرتُ برجفة تسري في جسدي، إنها السجلات الأكاشية كما وصفها الدكتور حبيب! هل هذا ما حدث؟ هل رأيتُ في تلك اللحظة جزءاً من حياة نعيم المخفية؟

قلتُ بصوت ضعيف: «أنا... أنا آسف، لم أكن أقصد...».

صرخ نعيم: «آسف؟! هل تعرف ما حدث بعد ذلك؟ انهارت نورة أمامي، وصفعتني أمام ابنتي نجوى! ثم أخذتُها وغادرتُ. لقد انفضح أمري أمام الجميع: معارفي، أصدقائي، عائلتي... الجميع علموا بما فعلت. فُصلت من عملي بسبب أن مديري في العمل هو أخو نورة! حتى زوجتي الثانية تركتني عندما علمت بفصلي من العمل، وبخسارتي لكل شيء بنيته طوال السنوات الماضية».

ثم اقترب مني أكثر، وقد اعترت ملامحه كراهية

عميقة، وقال: «خسرتُ كل شيء.. كل شيء بسبب تدخلكَ في حياتي!».

كان الموقف متوتراً للغاية، والحقيقة انفجرت كالقنبلة في وجهي. لقد تسببت في دمار حياة هذا الرجل من دون قصد. إن رؤيتي الغريبة - قدرتي على كشف أسراره على وجه الدقة -دمّرت كل شيء. فكرتُ بسرعة، وأنا أحاول إيجاد مخرج.

قلتُ بهدوء مفتعل طبعاً: « أنا متأسف حقاً يا أستاذ نعيم!، لكنني لم أكن أعلم ما سيحدث.. لم أقصد إيذاءك».

قال بمرارة: «لكنكَ فعلتَ. لذلك عندما اكتشفتُ من أنتَ حقاً، عندما قرأتُ عنكَ في الصحف بعد اختفائكَ، قررتُ البحث عنكَ. لقد وجدتكَ في ذلك الزقاق المظلم، كدتُ أن أقتلكَ هناك، لكنكَ هربتَ».

حدقتُ إليه: «وهل أنتَ مَن حاول دهس أمي؟».

حدق إليّ من دون فهم: «ماذا؟».

تفحصته بتركيز:

«السيارة السوداء التي هاجمتني أنا وأمي في وضح النهار!».

«لا، لم أفعل ذلك، لن أستبعد أنه شخص آخر قد دمرتَ حياته أيضاً!».

في هذه اللحظة، تحرّك الدكتور حبيب بسرعة نحوه محاولاً الإمساك به، لكنّ نعيم كان أقوى. دفعه بعنف، فارتطم رأسه بحافة الطاولة وسقط على الأرض فاقداً للوعي.

شعرتُ بالذعر. ماذا أفعل الآن؟ كان نعيم ينظر إليّ بعينين لا ترحمان، وفي يده الآن سكين كبيرة أخرجها من جيبه. متى؟ وكيف؟ لا يهم، فهو مصمم على قتلي!

قال نعيم وهو يقترب خطوة.. خطوة: «سأُنهي حياتكَ كما أنهيتَ حياتي».

نظرتُ حولي بحثاً عن منفذ، السكين التي كنتُ أمسك بها سقطت مني عندما تراجعت، والباب خلفه... لا مهرب!

في تلك اللحظة التي كان يحاصرني فيها نعيم أدركتُ أن بيني وبين الموت مجرد شعرة فحسب، وتوشك أن تنقطع!

(11)

لكن لا، لن أموت ميتة كهذه! تدفَّق الأدرينالين في جسدي، وأنا أنتصب بحركة مفاجئة (كانت مفاجئة لي أنا شخصياً) وأنا أدفع كلتا يديَّ نحو صدر مهاجمي، فارتبك للدفعة غير المتوقعة وانقلب على ظهره، وكانت سقطة مدوية، تُنبئ عن آلام ترتع في جسده في تلك اللحظة!

نهض الدكتور حبيب ببطء، متحسساً جرحه البسيط في رأسه من أثر السقطة المفاجئة، وقال: «أعتقد أن نعيم قد هدأ الآن. ربما علينا معالجة هذا الموقف بطريقة...»

لم يكمل جملته، فقد قطع حديثه صوت طرقات خفيفة.

«ساعف؟ هل أنتَ بخير؟»

التفتنا معاً نحو مصدر الصوت، كانت آيدن تقف بحذر عند عتبة الباب، وعلى وجهها خليط من

القلق والتوتر.

قالت آيدن بصوت خافت: «سمعتُ أصواتاً عالية، ثم صوت تحطم. هل...»

لم تكمل سؤالها، فعيناها اتسعتا ذعراً عندما رأت نعيم جالساً على الأرض، يستند إلى الحائط، وقد بدأ يستعيد وعيه تماماً. ثم لاحظت الدكتور حبيب والدم على جبهته.

سألت بتوتر واضح: «ما الذي يحدث هنا؟ هل تريد مني الاتصال بالشرطة؟»

قبل أن أجيب، نهض نعيم بحركة مفاجئة مترنحاً قليلاً، وصرخ: «لن تفلتَ مني هذه المرة يا ساعف!».

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

وبدأ يندفع نحوي بخطوات متعثرة، وعيناه تقدحان شرراً. كنتُ غير مستعد لمواجهته في تلك المرة، لكن ما حدث بعد ذلك لم يكن متوقعاً على الإطلاق.

اندفعت آيدن إلى داخل الشقة، والتقطت مزهرية ثقيلة من الكريستال المقلَّد (على سبيل استعادة فخامة فيلا والدي، ولو بطريقة رخيصة) كانت موضوعة على طاولة صغيرة قرب المدخل، وبحركة سريعة وحاسمة، هوت بالمزهرية على رأس نعيم من الخلف!

صوت ارتطام مكتوم، تبعه صوت تحطم المزهرية. توقف نعيم في مكانه جامداً للحظة، ثم تمايل جسده كشجرة تسقط ببطء، وتهاوى على الأرض فاقداً للوعي، وشظايا المزهرية المحطمة تتناثر حول رأسه.

وقفت آيدن مصدومة، مذهولة مما فعلته للتو. سقط المصباح من يدها المرتجفة، وهمست برعب: « ماذا فعلتُ؟ هل... هل قتلتُه؟».

هرعتُ نحو نعيم ووضعت يدي على عنقه، أتحسس نبضه، كان ضعيفاً لكنه منتظم. شعرتْ بموجة من الارتياح تجتاحني.

قلتُ محاولاً تهدئتها: «لا تقلقي، ما زال على قيد الحياة».

اقترب الدكتور حبيب سريعاً، ثم جثا على ركبتيه ليفحص نعيم. قلبَ جفنيه بحركة احترافية، وتفقّد الجرح الناجم عن ضربة المزهرية.

نظر إليَّ وقال: «ليس خطيراً، إنه مجرد جرح سطحي.. لكنه سيظل فاقداً للوعي لبعض الوقت. علينا الاتصال بالشرطة».

سقطت آيدن على أقرب كرسي، وأخذت تلهث بتوتر شديد. كانت يداها ترتجفان بعنف، وقطرات العرق تتلألأ على جبينها.

قالت بصوت متقطع: «أنا... أنا آسفة!، لم أقصد... رأيتُه يهجم عليكَ و.... شعرتُ بالخوف... فتصرفتُ من دون تفكير».

اقتربتُ منها وقلتُ بلطف: «لا داعي للاعتذار يا آيدن، لقد أنقذتني. شكراً لكِ».

رفعت عينيها إليَّ بتردد، وقالت: «هل سيقبضون عليَّ؟».

قلتُ بسرعة:

«لا، بالطبع لا. لقد تصرفتِ دفاعاً عني، ثم إنّ هذا الرجل اقتحم شقتي، وحاول الاعتداء عليّ مرتين.. لا تقلقي».

***

استغرق وصول الشرطة خمس عشرة دقيقة كاملة، كانت أطول خمس عشرة دقيقة في حياتي. بقيت آيدن صامتة غارقة في أفكارها، بينما كان الدكتور حبيب يراقب حالة نعيم باهتمام طبي.

طرق رجلان بالزي الرسمي الباب المحطم، وما إن رأيا المشهد المرتبك في الداخل حتى طلبا تعزيزات وسيارة إسعاف.

سرعان ما امتلأت شقتي بالشرطة وبفريق

طبي، وبدأت سلسلة طويلة من الأسئلة والإجابات.

قال الضابط المسؤول، وهو رجل في منتصف الأربعينات، ذو شاربٍ كثّ وعينين ثاقبتين، وهو يدوّن ملاحظاته: «إذن، هذا الرجل اقتحم شقتكَ، وحاول الاعتداء عليكَ، ثم تدخلت جارتكَ لحمايتكَ!».

أومأت برأسي: «نعم، هذا صحيح».

التفتَ إلى آيدن وسألها: «وأنتِ يا آنسة، هل تؤكدين هذه الرواية؟».

كانت آيدن ما تزال مصدومة، لكنها أجابت بصوت خافت: «نعم.. سمعتُ صراخاً، فجئتُ لأستطلع الأمر. كان الرجل يهاجم ساعف، فتدخلتُ لمساعدته».

نظر الضابط إلى الدكتور حبيب: «وأنتَ...؟».

«دكتور حبيب المنصور. أنا طبيب، وكنتُ أزور

الأستاذ ساعف عندما اقتحم هذا الرجل شقته».

قال ضابط آخر وهو يفحص الباب: «لا توجد آثار كسر واضحة على القفل، يبدو أنه استخدم أداة ما لفتح الباب».

قلت بضيق:

«هذه غلطتي».

وشرحتُ له ما حدث. قال وهو يكتب شيئاً في دفتر صغير.

«سنتحقق من كل معلومة قُلتها أنتَ ومن معكَ».

اقترب طبيب الطوارئ الذي قدم مع الشرطة من نعيم وفحصه بعناية، ثم قال: «حالته مستقرة. الإصابة سطحية، لكنه يحتاج إلى النقل إلى المستشفى لإجراء فحوصات أكثر دقة».

بدأ فريق الإسعاف بنقل نعيم على نقالة، وفي تلك اللحظة استعاد وعيه جزئياً، فتح عينيه ببطء،

ونظر حوله بارتباك، ثم استقر بصره عليَّ.

همس بصوت متعب: «ساعف...».

لم يكمل جملته، فقد بدأ رجال الإسعاف بتحريك النقالة، وأخذوه خارج الشقة.

سألني الضابط: «هل تعرف هذا الرجل من قبل؟».

ترددتُ للحظة، ثم أجبتُ بصدق: «نعم، ثمة خلاف بيننا. لكنني لم أتوقع أبداً أن يصل به الأمر إلى هذا الحد».

«ما طبيعة هذا الخلاف؟».

«إنه... معقّد نوعاً ما. لقد تسببتُ له بمشكلة شخصية من دون قصد، وهو يلقي باللوم عليَّ».

لم أرغب في الخوض في تفاصيل قدرتي الغريبة، والسجلات الأكاشية، وكيف كشفتُ سرّ نعيم أمام زوجته. بدا الضابط غير مقتنع تماماً بإجابتي المقتضبة، لكنّه لم يضغط أكثر.

قال: «سنحتاج إلى أخذ أقوالكم بشكل رسمي في المركز، يمكن أن يكون ذلك غداً صباحاً. سيتم توقيف المدعو نعيم بتهمة اقتحام منزل ومحاولة اعتداء».

ثم التفت إلى آيدن وقال بنبرة أكثر لطفاً: «سيدتي، لا داعي للقلق. ما قمتِ به يندرج تحت الدفاع عن النفس والغير».

ارتسمت على وجه آيدن ابتسامة ارتياح باهتة، وهمست: «شكراً لك».

***

غادر رجال الشرطة شقتي بعد أخذ كل المعلومات اللازمة، تاركين خلفهم مزهرية محطمة، وثلاثة أشخاص مرهقين.

قال الدكتور حبيب: «أعتقد أن علينا جميعاً أن نأخذ قسطاً من الراحة. هذه الليلة كانت..»

وابتسم كمن يبحث عن كلمة معبرة وقال:

استثنائية، سأذهب الآن وسأتصل بكَ غداً يا ساعف. هناك الكثير مما يجب أن نتحدث عنه».

رافقته إلى الباب، وقلتُ بصوت منخفض: «دكتور حبيب، أنا لا أفهم ما يحدث، الرجل المجهول يتصل بي، ثم يقتحم نعيم شقتي، وكل هذا الحديث عن الكتاب الأعظم...».

وضع يده في يدي، فإذا هي بطاقته الخاصة والتي تحمل عنوانه ورقم هاتفه الشخصي، وقال: «غداً سنناقش كل شيء، أعدك. الآن، حاول أن تنام قليلاً، ستحتاج إلى كل طاقتك».

***

لم أنم جيداً تلك الليلة، كنتُ أستيقظ كل ساعة تقريباً، مرهقاً من الكوابيس والأفكار المتضاربة. نعيم، والدكتور حبيب، والسيارة السوداء التي حاولت دهس أمي، وكل هذا يشكّل لغزاً معقداً لا أستطيع حله.

استيقظتُ تماماً عند الفجر.

حاولتُ الاتصال بالدكتور حبيب عدة مرات طوال اليوم، لكنّ هاتفه كان مغلقاً! وهذا أثار قلقي أكثر.. أين اختفى فجأة؟

عند غروب الشمس، سمعتُ طرقاً خفيفاً على بابي، نظرتُ عبر العين السحرية. لقد كانت آيدن خلف الباب وتحمل صينية صغيرة عليها طعام مغطى.

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

فتحتُ الباب، فقالت آيدن : «أردتُ فقط الاطمئنان عليكَ، لا بد أنكَ جائع».

ابتسمتُ لها: «ليس لديكِ فكرة».

طبعاً تركت باب الشقة مفتوحاً على مصراعيه.

وأقبلتُ على الطعام كخَرتيت جائع، وأنا أتمنى ألا يدخل معتوه آخر يريد إيذائي!.

ابتسمتْ وهي تسألني:

«هل ظهر الدكتور حبيب؟».

هززت رأسي نفياً: «لا.. لا أستطيع الوصول إليه».

بدت قلقة: «غريبة! بدا متحمساً للقائكَ مرة أخرى البارحة».

«هذا ما يقلقني أيضاً».

أنهيتُ طعامي، وشكرتُها، وغادرَت المكان.

كنتُ غارقاً في هذه الأفكار، أتساءل عن خطوتي التالية عندما سمعتُ جرس الباب يرن. قفز قلبي إلى حلقي، توجستُ خيفة، عدتُ إلى العين السحرية ونظرت..

تسمَّر جسدي واقفاً من الصدمة.

راشد العمري، بقامته الفارعة وبأناقته المعهودة، وبوجهه الوسيم الذي تعلوه ابتسامة باردة يقف أمام بابي!.. الوقح، يأتي إلى شقتي مباشرة بعد تركه لي أواجه الموت!

فتحتُ الباب ببطء مستعداً لأي شيء.

وقف راشد أمامي، وابتسامته الباردة لا تفارق شفتيه.

«مساء الخير يا ساعف، أظن أنّ لدينا الكثير لنتحدث عنه».

(12)

فتحتُ الباب ببطء، وكامل حواسي متيقظة ومستعدة لأي شيء. وقف راشد العمري أمامي بزيه الأنيق وبقامته الفارعة. لاحظتُ الساعةَ الثمينة حول معصمه، وكذلك حذاءَه اللامع، وتلك الابتسامة الكاذبة التي تعلو شفتيه. كل شيء فيه يصرخ بالثراء وبالتعالي.

قال راشد بنبرة هادئة مصطنعة: « آسف على الزيارة المفاجئة».

قلتُ ببرود:

«لا، أنتَ لستَ كذلك».

وقفتُ صامتاً للحظات أتأمل ملامحه بدقة، محاولاً فهم سبب زيارته الغريبة، وهو يقف على عتبة بابي كأنه صديق قديم!

قلتُ بحذر: «ماذا تريد؟».

ابتسم ابتسامة مراوغة وقال: «ألن تدعوني

إلى الدخول أم لا؟».

ترددتُ للحظة، لكنّ فضولي لمعرفة ما يجري تغلّب على حذري. تنحيتُ جانباً، وأشرتُ له بالدخول. راقبتُه بعناية وهو يتفحص شقتي المتواضعة، مقارناً إياها في ذهنه- بلا شك -بقصره الفخم.

قال راشد وهو يجلس على الأريكة من دون دعوة: «جئتُ للاطمئنان عليكَ، سمعتُ أنكَ تعرّضتَ لبعض المشاكل مؤخراً».

سألته بسخرية: «منذ متى وأنتَ تهتم بأحوالي؟».

أشاح بنظره للحظة، ثم قال: «دعنا نتجاوز خلافنا القديم، فنحن رجلان ناضجان، أليس كذلك؟ يمكننا حلّ خلافاتنا بطريقة متحضرة».

جلستُ قبالته، أراقب كل حركة وتعبير على وجهه. كان هناك شيء غير طبيعي في زيارته

المفاجئة هذه.

قال بصوت خفيض: «بين قوسين، أُفضِّل أن تحتفظ بتفاصيل لقائنا السابق سرّاً».

لم يَفُتني قلقه المكتوم وتوتره المخفي تحت قناع الثقة، كان لدي فرصة، وقررتُ استغلالها.

ابتسمتُ ببطء وقلتُ: «وماذا لو لم أفعل؟ ماذا لو أخبرتُ الصحافة مثلاً كيف تركتني بين الحياة والموت في المستودع، ثم ركبتَ سيارتكَ الزرقاء الفاخرة، وأشعلتَ سيجاركَ الكوبي بكل برود، ثم انطلقتَ بها من دون أن يرمش لكَ جفن؟».

تجمَّد وجهه للحظة.

ازدادت ابتسامتي ثقة واتساعاً: «أنا وأنتَ نعرف بالضبط ما حدث في ذلك المستودع، أليس كذلك؟».

نهض راشد بغتة، وبدأ يذرع الغرفة بخطوات قلقة. سأل بصوت متوتر: «هل هناك مَن سجَّل

لقاءنا؟ هل... هل لديكَ دليل على ما تقول؟».

لم أُجب، اكتفيتُ بابتسامة غامضة مفتعلة، هذا الغموض هو سلاحي الوحيد الآن. قال بنبرة تحمل الغضب والخوف معاً: «أنتَ تلعب بالنار يا ساعف».

وثبتُ واقفاً وقلتُ بشراسة: «وأنتَ من أشعلها أولاً. لماذا حاولتَ دهس أمي؟».

فوجئ بسؤالي: «دهس.. وأمك! عمَّ تتحدث؟».

بدا مندهشاً بصدق، أو ربما هو ممثل بارع جداً. قلتُ: «السيارة السوداء التي حاولت دهسنا كانت تتبعكَ، أليس كذلك؟»

هزّ رأسه نفياً: «لم أحاول دهس أحد، قد تكون لدينا خلافاتنا، لكنني لستُ مجرماً».

لم أكن متأكداً ممّا إذا كان يقول الحقيقة، كل شيء مشوش في رأسي. إن لم يكن راشد هو مَن حاول دهس أمي، فمن تُراه يكون؟

قال راشد فجأة: «لأقترح عليكَ صفقة».

«صفقة؟».

«نعم، أنتَ تنسى ما حدث في المستودع، وأنا أنسى ما فعلته بسمعتي».

ضحكتُ بسخرية: «أيّ سمعة تلك التي تتحدث عنها؟ سمعتكَ كرجل يستغل النساء؟».

احمر وجهه غضباً: «انتبه إلى كلامكَ! أنا رجل محترم، ولن أسمح لك...».

قاطعته ساخراً: «هل لهذا جئت؟ لتهددني؟».

أخذ نفساً عميقاً، وحاول استعادة هدوئه: «لا، جئتُ لأتفاهم معكَ. بيننا مصالح مشتركة».

«لا توجد مصالح مشتركة بيننا».

«ماذا عن هند؟».

تجمد قلبي للحظة، هند... اسمها ما زال يثير الألم في أعماقي.

قال راشد: «أظن أنكَ ما زلتَ تهتم بأمرها،

أليس كذلك؟»

لم أُجب، ازدادت ابتسامته مكراً، ثم قال: «حسناً، أنا راحل. فكِّر في كلامي».

قلتُ بغضب: «ما دامت هند معكَ، فلن أكفَّ عن إزعاجكَ وعن كشف حقيقتكَ للناس.. كنُ على ثقة من ذلك».

توقّف بغتة، ورمقني بنظرة نارية، ثم انصرف.

***

استيقظتُ في صباح اليوم التالي على رنين هاتفي، رقم غير معروف. ترددتُ قبل أن أردّ.

«ألو.. مَن المتحدث؟».

صوت أنثوي خافت من الطرف الآخر: «ساعف؟».

شعرتُ بقشعريرة تسري في جسدي، عرفتْ صاحبة الصوت فوراً: «هندا!».

«نعم، أنا هند. كيف حالك؟»

تسارعت دقات قلبي، لماذا تتصل بي الآن بعد كل ما حدث؟

قلتُ ببرود مصطنع: «بخير. ماذا تريدين؟».

تنهدت بعمق: «أريد أن أراكَ، هناك أمور يجب أن نتحدث عنها».

«لم يعد بيننا ما نتحدث عنه».

«أرجوكَ يا ساعف.. الأمر مهم!. هل يمكننا أن نلتقي اليوم، في المقهى القريب من شقتكَ؟».

ترددتُ، جزء مني أراد رفض طلبها بشدة، والجزء الآخر كان فضولياً لمعرفة ما تريد، خاصة بعد زيارة راشد المفاجئة.

«حسناً، بعد ساعتين».

«شكراً لكَ. سأكون هناك».

***

كان المقهى هادئاً في ذلك الصباح، جلستُ

زاوية بعيدة أنتظر وصول هند. ذكريات لقاءاتنا السابقة في هذا المكان نفسه بدأت تطفو على سطح ذاكرتي، كنا نجلس هنا لساعات، نتحدث عن أحلامنا وطموحاتنا. كانت هند تخبرني عن شغفها بعالم الأعمال، وعن مشاريعها المستقبلية التي ستحقق مئات الآلاف من الدولارات. وكنتُ أخبرها عن رواياتي.

ثم دخلت وعلى وجهها تعبير مضطرب، لمحتني وتوجّهت نحوي مباشرة. قالت وهي تجلس أمامي.

«مرحباً ساعف».

رددتُ باقتضاب:

«هند».

جلست بتوتر واضح، ووضعت حقيبتها على المنضدة. لاحظت أن يديها ترتجفان قليلاً.

«شكراً لقبولكَ لقائي».

قلتُ بغلظة:

«ماذا تريدين؟».

تنهدت بعمق وقالت: «أولاً، أريد أن أعتذر. أعلم أن ما فعلته كان...كان قاسياً».

ابتسمتُ بمرارة: «قاسياً؟ هل هذا وصف مناسب لتخليكِ عني من أجل رجل أكثر ثراء؟».

خفضت عينيها بخجل: «كنتُ مخطئة، اختياري كان خاطئاً».

«لماذا جئتِ الآن؟».

رفعت نظرها إليّ وقالت: «راشد... إنه ليس كما ظننتُ، إنه ليس أنتَ. كل يوم كان يمرُّ علينا كنتُ أشعر أنه مختلف عنكَ».

قلتُ: «لا أفهم ما تريدين قوله، كوني مباشرة وواضحة مع أقل قدر ممكن من الكلمات».

«لقد اشتقتُ إليكَ. بمجرد أن علمتُ باختفائك اجتاحني قلق عظيم بشأنكَ، ثم حين رأيتُ صوركَ،

وعلمتُ أنكَ بخير غمرتني سعادة كبيرة، حينئذ أدركتُ أني ما زلتُ أحبكَ».

خفق قلبي فغمغمتُ بارتباك:

«ما الذي تعنينه؟»

نظرت حولها بحذر، ثم أخرجت من حقيبتها ظرفاً صغيراً: «وجدتُ هذا في مكتب راشد. كنتُ أبحث عن بعض أوراقي الشخصية، وبدلاً من ذلك وجدتُ هذا».

فتحتُ الظرف بفضول، كان يحوي صوراً لي وأنا أدخل شقتي، وأخرى لي في المكتبة وفي المقهى. إنها صور التُقِطت من دون علمي!

«هند، متى وجدتِ هذا؟».

«قبل ثلاثة أيام، لم يكن راشد يعلم أن لديّ مفتاحاً لمكتبه. عندما رأيتُ هذه الصور، شعرتُ بالخوف عليكَ».

قلبتُ الصور بين يدي محاولاً فهم المعنى، ثم

تجلّت لي الحقيقة ساطعة كنور الشمس. لقد علِم أني بخير وعلى قيد الحياة، فكلَّف من يقوم بمراقبتي وتصويري. هذا متوقع من وغد مثله.

شعرتُ برجفة في جسدي، قلتُ: « هل تعتقدين أنّ راشد قد يكون خطيراً إلى هذه الدرجة يا هند؟ هل يمكن أن يحاول إيذائي فعلاً؟».

ترددَت للحظة، ثم قالت: «لا أعرف مدى خطورته، لكنني رأيتُ جانباً مظلماً منه. إنّه رجل مستعد لفعل أي شيء للحصول على ما يريد».

أخذتُ نفساً عميقاً، وقلتُ: «راشد زارني البارحة».

اتسعت عيناها ذعراً: «ماذا؟.. ماذا قال لكَ؟».

«كان يحاول عقد صفقة معي، قال إنه سينسى ما فعلتُه بسمعتُه إذا نسيتُ ما حدث في المستودع».

«المستودع؟! ما الذي تتحدث عنه؟».

هنا تذكرتُ أنّ هند لا تعرف شيئاً عن فقداني للذاكرة، أو عن حادثة المستودع. قلتُ: «قبل أسبوع، كنتُ في مستودع مهجور مع راشد. حدث شجار بيننا، وانتهى الأمر بي مصاباً وفاقداً للذاكرة».

بدت مصدومة: «لماذا لم تخبرني؟».

قلتُ بضيق، وقد استفزني عدم استيعابها للموقف:

«كيف سأخبركِ وأنتِ كنتِ مع راشد؟».

نظرت إليَّ بعينيها الآسرتين وقالت: «أنا آسفة حقاً!، لقد اخترت الشخص الخطأ. كان يجب أن أبقى معكَ».

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

تنهدتُ بإرهاق: «لا فائدة من الحديث عن الماضي الآن».

«أنا خائفة يا ساعف! راشد يعرف أنني أخذتُ هذه الصور.. لقد هدّدني».

«ماذا قال لكِ؟».

«قال إنني سأندم، قال إنه لن يسمح لأحد بالوقوف في طريقه».

«لا تقلقي. لن يفعل شيئاً. لديَّ ما يجعله يتحوّل إلى كائن أليف لطيف لا ينفع ولا يضر. هيا بنا».

نظرَت إليَّ باستغراب: «إلى أين؟».

«إلى أيّ مكان، أريد أن أشمَّ الهواء النقي في الخارج».

دفعتُ ثمن القهوة وخرجنا. كان الشارع مزدحماً بالناس وبالسيارات المتحركة ببطء،

سرنا مبتعدين عن المقهى. كانت هند تمشي بجانبي بخطوات هادئة، وهي تبتسم.

فجأةً، لفتَ انتباهي صوت محرك يتسارع. التفتُ لأرى سيارة سوداء كبيرة تندفع نحونا من الشارع الجانبي!

صرختُ: « احترسي يا هند!».

دفعتها بكل قوتي بعيداً عن طريق السيارة. سقطت على الرصيف، بينما واصلت السيارة اندفاعها نحوي.

لم يكن لديّ وقت كافٍ للابتعاد، ارتطمت السيارة بجسدي، وشعرتُ بألم هائل يجتاح كل خلية في كياني. طِرتُ في الهواء متراً أو مترين، ثم سقطتُ على الأسفلت بصوت مكتوم.

همهمات بعيدة، صراخ خافت، وجه هند فوقي وهي تبكي وتهتف باسمي، ثم... ظلام.

@N_BHS2

(13)

حين كانت تُجرى لي عملية دقيقة في حجرة العمليات في المستشفى من جرَّاء ارتطام السيارة بي، كان عقلي يستعيد ذكرى قريبة مماثلة نوعاً ما، حيث كان هناك ضباب كثيف يُغلِّف كل شيء. صوت آلات تُصدِر نغمات متقطعة، ألم خافت في كل أنحاء جسدي. حاولتُ فتح عينيَّ، لكنّ جفنيَّ كانا ثقيلين كأنهما من رصاص.

«أظنه يستعيد وعيه».

كان هذا صوت رجل، لكنني لم أستطع تحديد ملامحه المشوشة بعد.

« هل تسمعني يا أستاذ ساعف؟».

أخيراً، نجحتُ في فتح عينيّ. كان كل شيء ضبابياً في البداية، ثم تشكَّلت الصور تدريجياً. سقف أبيض، مصباح ساطع، ورائحة معقمات طبية تملأ أنفي. قال الصوت:

«أهلاً بعودتكَ إلى عالم الأحياء».

استدرتُ ببطء نحو مصدر الصوت، كان صاحبه يرتدي رداء طبياً، وقفّازات، وكمامة متدلّية تحت ذقنه. وجهه شاحب ومرهق، وعيناه تحملان مزيجاً من القلق والارتياح، وكان معه رجلٌ في أوائل الأربعينات، ذو ملامح طفولية.

قلتُ بصوت متحشرج: «أين... أين أنا؟».

أجاب الدكتور حبيب: «في عيادتي، لقد تعرضتَ إلى حادث بشع في جمجمتكَ. لكنكَ محظوظ، فلا إصابات خطيرة في الرأس أو العمود الفقري».

حاولتُ النهوض، لكنّ ألماً حادّاً اخترق صدري، فارتميتُ على الفراش مرة أخرى.

قال الرجل المرافق له: «لا تتحركْ، الجروح لم تلتئم بعد. لقد انتهى الدكتور حبيب للتو من خياطة الجرح في فخذكَ، وفروة رأسكَ، وكلامكَ المتزن الواعي يؤكد أنكَ لم تُصب بارتجاج في

قال حبيب وهو يتفحص عينيَّ بمصباح صغير:

«هذا سابق لأوانه يا عواد، دعنا لا نتعجل الأمور».

أومأ عواد برأسه بطاعة.

قال الدكتور حبيب:» أنتَ متعب ومصاب، يجب أن ترتاح الآن».

نظر إلى ساعته وقال: «نصف ساعة فحسب؟ لا بأس. ما زلت أحتفظ بلمستي الساحرة».

وربّتَ على يدي برفق، وهنالك رأيتُه! ومضة في ذهني تعاظمت حتى غدت أشبه بشاشة عرض عملاقة، حيث رأيتُ حبيب في سيارته ومعه زوجته وابنته، وفجأة تحرّكت سيارة نحوه بحركة متهورة، جعلت حبيب يحيد بسيارته بعيداً حتى لا يرتطم بذاك السائق الأحمق. لكنّ انحرافه المباغت تسبّب في أن سيارته دخلت في جدار أسمنتي قريب، وأمكنني أن أرى أربعة أشياء: رقبة زوجته متدلّية، ممّا يعني أنها قد لقيَت مصرعها. أما

ابنته فكانت تصرخ بدون توقف، ممّا يعني أنها على قيد الحياة، لكن مع صدمة عصبية حادّة لمرأى أمها تموت، وأغلب الظن أنها ستصحبها حتى مماتها، إلّا إذا تلقت جلسات علاج نفسي مكثفة. ورأيتُ حبيب وهو يحاول استيعاب الموقف حوله، لكنّ الشيء الرابع هو الذي لفتَ نظري أكثر، حيث رأيتُ سائق السيارة الأخرى، والذي لم يكن إلّا راشد نفسه!

***

قال الدكتور حبيب: «كنتُ في المستودع ليلة مشاجرتكَ مع راشد، كنتُ... كنتُ أراقبه منذ فترة».

سألته بعصبية: «تراقبه؟ لماذا؟».

أشاح بوجهه، وقد بانت علامات المقت على وجهه: «لأسباب شخصية».

***

وهنا وجدتُني أنتبه من الصور المتحركة بسرعة

البرق في ذهني، وحبيب يحدّق إليَّ، وهو يقول ذاهلاً:

«كيف عرفتَ كل هذا؟».

تأملته بحيرة، هل يقرأ أفكاري؟ ثم تنبهتُ إلى شيء عجيب: إنني كنتُ أتكلّم وأصف ما أراه من دون أن أدري. تأملته بعينين خاويتين، وهنا لم أشعر إلّا بمحقن طبي في يد عوّاد ينغرس في عروقي، فأغيب في نوم عميق.

***

استيقظتُ بعد منتصف الليل.

قررتُ ألّا أنتظر في هذا المكان. رفعتُ نفسي مُتحمِّلاً الألم، وجلستُ على حافة السرير. كانت ملابسي موضوعة على كرسي قريب، ممزقة وملطخة بالدماء.

سحبتُ المحقن من ذراعي بحذر، ثم ارتديتُ ملابسي ببطء. كل حركة كانت تسبب ألماً حاداً في جسدي. لكنّني كنتُ مصمماً على الخروج من

هنا. كنتُ حائراً يعتريني شعور طاغٍ بالضياع، ولم يخطر ببالي الاتصال بأحد من أهلي، كل ما كنتُ أريده هو التجوّل في الشوارع.

فتحتُ باب الغرفة بحذر، ونظرتُ إلى الممر الأبيض الممتد، من حسن الحظ أنه كان خالياً. تسللتُ بهدوء متجنباً المكتب الرئيسي، حتى وصلتُ إلى الباب الخلفي للعيادة. فتحتُه ببطء، وخرجتُ إلى الشارع.

الشمس كانت تتجه نحو الغروب، وبرودة المساء بدأت تسري في الهواء. سرتُ في الشارع ببطء، متّكئاً على الجدران أحياناً لدعم جسدي المتعب. لم أكن أعرف وجهتي بالضبط، لكنّني كنتُ مدفوعاً برغبة قوية في الابتعاد عن العيادة، وعن الدكتور حبيب، وعن كل ما يمثله الموقف من غموض.

مشيتُ في شوارع المدينة، وأفكاري تتصارع في رأسي. مررتُ بمحلات مغلقة، وبمطاعم

صاخبة، وبأرصفة مزدحمة بالمارة الذين ينظرون إليَّ بفضول واستغراب. لا بدّ أن مظهري كان مُزرياً.

استمر سيري بلا هدف، حتى وجدتُ نفسي أمام متنزه عام.

كان المتنزه مزدحماً في ذلك المساء الربيعي نوعاً ما، مع لمسة باردة محببة من بقايا الشتاء. عائلات تجلس على العشب، أطفال يلعبون، شباب يتسكعون، وكبار في السن يتمشون ببطء على الأرصفة المصقولة.

جلستُ على مقعد خشبي محاولاً التقاط أنفاسي، الألم في ضلوعي كان لا يُطاق، وشعرتُ بسائل دافئ ينزل على فخذي. لا بد أنّ جرحي قد انفتح مُجدداً.

«انتبه يا هذا!». إنه صوت الرجل الجالس بجواري، يحذرني من قطرات الدم السائلة من جرحي. كان أسمر، له شعر أسود كثيف. وضعتُ

يدي على الجرح ونهضتُ بحرج، لكني انزلقتُ على الرغم مني وسقطتُ، وبفعل ذلك لمسته من دون قصد، ومجدداً بدأت ومضة عجيبة تنمو في ذهني وتحتل فضاءَه. حيث رأيتُ الرجلَ ذا البشرة السمراء مع امرأة أخرى، إنّها زوجته الثانية نورة، لا بدّ أنه يحب زوجته الأولى ناهد، لأن عيد ميلاد نورة كان في يوم الجمعة هذا، ومع ذلك فقد قضاه مع زوجته الأولى.

صراخ نعيم المرتعب ينتشلني: «توقف! توقف أيها الوضيع! كيف عرفتَ كل هذا؟!».

زوجته المسكينة تنظر إليه، وقد أدركت أن ما تفوهتُ به تحت تأثير النوبة العجيبة (مع أني لا أتذكر أني تفوهتُ به!) هو الحقيقة بلا رتوش. الأحمق كشف نفسه، وربما مع بعض الثبات الانفعالي ولكمة على فكّي. كان من الممكن أن تصدّق زوجته المخدوعة خداعه.

قالت بصوت متقطع: «نعيم، عمَّ يتحدث

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

هذا الرجل؟».

اضطربَ وهو يقول: «علمي علمكِ، لا أعرف ما الذي يتفوه به هذا الرجل من أكاذيب».

لكنّ وجه نورة تغيّر، كانت تعرف في أعماقها أنني أقول الحقيقة. الشك الذي كانت تكبته طوال الأسابيع الماضية انفجر الآن.

قالت بصوت منكسر: «هل هذا صحيح يا نعيم؟».

لم يستطع النظر في عينيها، خفض رأسه في صمت. وكانت تلك إجابة كافية. أمسكت بيديّ ابنتها، وقالت: «لن أكون أضحوكة مرة أخرى.. انتهى الأمر».

حاول الإمساك بها: «نورة، أرجوك دعيني أشرح...»

دفعته بعيداً: «لا يوجد ما تشرحه، وداعاً يا نعيم».

أخذت ابنتها وابتعدت بسرعة. حدق نعيم إليّ

بنظرة مليئة بالكراهية والحقد.

قال بصوت مختنق: «لقد دمّرت حياتي، لن أنسى لك هذا أبداً».

لم أشعر بانتصار أو برضا. بل وليتُ هارباً، وصرخاته تلاحقني.

***

واصلتُ سيري في شوارع المدينة المظلمة، وأنا أشعر بألم متزايد في جسدي، وبضباب يغزو عقلي. لم أعد متأكداً من الطريق أو من وجهتي. كل ما كنت أعرفه هو أنني بحاجة إلى الابتعاد، إلى الهروب من كل شيء.

أزقة متعرجة، شوارع ضيقة، مبان قديمة متهالكة. ساقاي تقودني بشكل تلقائي، كأنهما تعرفان المكان الذي أحتاج للذهاب إليه.

توقفتُ أمام منزل قديم يكاد يكون متهدماً، كان مبنى من طابقين، مهجوراً فيما يبدو. نوافذه محطمة، وبابه متآكل، وحديقته مليئة

بالأعشاب الضارة.

شيء ما جذبني إلى هذا المكان. شعور غريب بأنني زرته من قبل، بأنه مهم بطريقة ما.

اقتربتُ من الباب، ودفعتُه برفق، فانفتح مُصدِراً صريراً مخيفاً. كان داخله مظلماً إلّا من بقايا ضوء الغسق المتسلل عبر النوافذ المحطمة.

خطوتُ إلى الداخل بحذر، كانت الأرضية مغطاة بالغبار والحطام، والجدران متشققة، والسقف يكاد ينهار في بعض الأماكن. ناديتُ، من دون أن أعرف لماذا:

«هل هناك أحد؟».

صمت مطبق، ثم صوت خافت كالهمس يأتي من الطابق العلوي.

تسلقتُ الدرج المتهالك ببطء، متحملاً الألم في كل خطوة. وصلتُ إلى ممر طويل، يُفضي إلى عدة غرف. الباب الأول مغلق، الثاني كان مواراً.

دفعت الباب الثاني، ودخلتُ إلى غرفة صغيرة. كان الظلام شبه دامس هنا، وهواء بارد يتسلّل من نافذة محطمة.

وفجأة، لمحتُ حركة في الزاوية. استدرتُ بسرعة، وشعرتُ بقلبي يتوقف للحظة.

فتاة شابة شاحبة كالموت تقف هناك، شعرها طويل ومتشابك، وعيناها جاحظتان، وفستانها ممزق وملطخ بالأوساخ.

صرخَت بصوت مكتوم حين رأتني: «ساعدني! لا تتركني هنا!».

هرعتُ نحوها: «من أنتِ؟ ماذا تفعلين هنا؟».

حاولتُ الإمساك بها، لكنّ يدي مرت خلالها كأنها هواء! تراجعتُ مصدوماً، وحدّقتُ إليها بذهول.

همستُ: «مَن... ما أنتِ؟».

الفتاة بكت بصمت، ثم قالت: «اسمي سارة، لقد

قتلني.. أنا والأخريات».

شعرتُ برعب يجتاح أوصالي: «من قتلكِ؟».

«الرجل الذي جئتَ تبحث عنه».

ثم بدأت الجدران تتمايل من حولي، والأرضية تهتز تحت قدميّ. أغمضتُ عينيّ للحظة، وعندما فتحتُهما اختفت الفتاة، وتغيرت الغرفة تماماً.

الآن كانت الغرفة مليئة بالرفوف والملفات والأوراق المتناثرة. وفي الوسط، هناك طاولة كبيرة عليها خريطة للمدينة، مع علامات حمراء موضوعة في أماكن متفرقة.

اقتربتُ من الطاولة بارتباك. وإلى جانب الخريطة، كانت هناك ملفات لفتيات مختلفات: صور، وأسماء، وتواريخ.

جلستُ على كرسي قريب، وبدأتُ أتصفح الملفات بيدين مرتجفتين. سارة حمد، 17 عاماً، اختفت بتاريخ 22/5/2018. ليلى سعد، 19 عاماً، اختفت بتاريخ 15/8/2016. حبيبة العمري، 22 عاماً،

اختفت بتاريخ 7/11/2013.

وهكذا، ملف تلو الآخر، لفتيات اختفين على مدار اثني عشر عاماً. ثلاث وعشرون فتاة بالضَبط.

ثم فجأة، رأيتُها رؤية واضحة كمشهد سينمائي: حفرة كبيرة في حديقة المنزل، وفيها جثث متعفنة لفتيات، بعضها مدفون منذ سنوات، وبعضها حديث نسبياً.

وصوت الفتاة يهمس في أذني: «اعثرْ علينا، اكشف الحقيقة، أوقفه قبل أن يقتل مجدداً».

انتفضتُ واقفاً، ورعبٌ بارد يسري في عروقي. هذا المنزل ليس مجرد مبنى مهجور، إنه مقبرة.. مقبرة تضم جثثَ ثلاث وعشرين فتاة اختفين على مدار اثني عشر عاماً!

(14)

أصواتٌ متداخلة، همسات قلقة، بكاء خافت.

فتحتُ عينيَّ ببطء، وكأنّ جفنيَّ مثقلان مجدداً بأطنان من الرصاص.

ضوء ساطع يخترق عدسات عينيّ، جاعلاً رؤيتي ضبابية للحظات. رائحة معقمات طبية وأدوية تملأ أنفي. استغرق الأمر بضع ثوان حتى اتضحت الصورة أمامي.

سقف أبيض، أجهزة طبية تُصدر أصواتاً متقطعة، قسطرة وريدية في ذراعي. كنتُ في المستشفى.

«لقد استيقظ!، ساعف استيقظ!».

صوت أنثوي لاهف يخترق صمت الغرفة، التفتُ ببطء نحو مصدر الصوت. كانت هند تجلس بجانب سريري، وعيناها الجميلتان محمرتان من البكاء.

قالت بصوت متهدج من شدة التأثر: «أخيراً

استيقظتَ! كنتُ خائفة للغاية عليكَ».

حاولتُ الكلام، لكنّ حلقي كان جافاً كالصحراء. أمسكت هند بكوب ماء بجانب السرير، وساعدتني على شرب رشفات صغيرة منه.

قلتُ بصوت متحشرج: «كم... كم مضى من الوقت؟».

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

« كنتَ في غيبوبة طوال ثلاثة أيام!».

ثلاثة أيام! يعني بالإضافة إلى الأسبوع الذي فقدتُه قبل ذلك، أضعتُ عشرة أيام من حياتي خلال شهر!.. وتيرة مقلقة.

سمعتُ حركة عند باب الغرفة، التفتُّ لأجد آيدن تقف هناك، تحمل باقة صغيرة من الزهور. على وجهها مزيج من الارتياح لرؤيتي مستيقظاً، والارتباك لوجود هند.

قالت آيدن بصوت خافت: «هل أنتَ بخير يا ساعف؟».

منحتُها ابتسامة ممتنة: «شكراً لكِ يا آيدن. كيف علمتِ؟».

«من الدكتور حبيب».

لاحظت هند نظراتي إلى أيدن، فقالت بنبرة فيها شيء من العجرفة: «آيدن تزوركَ يومياً منذ دخولكَ المستشفى، إنها فتاة لطيفة».

كانت نبرة هند غريبة، فيها نوع من فرض السيطرة، وكأنها تحاول تأكيد وجودها بوصفها الشخص الأقرب إليَّ. وجدتُ نفسي مستمتعاً بهذا التنافس الخفي بينهما، رغم ألمي وتعبي.

خطت آيدن إلى الداخل بتردد، ووضعت الزهور في مزهرية قريبة. كانت تتجنب النظر إلى هند.

قالت آيدن: «أحضرتُ لكَ بعض الكتب أيضاً، فكّرتُ في أنكَ قد تشعر بالملل هنا».

هزّت هند رأسها بتعالٍ خفيف: «ساعف يحتاج إلى الراحة لا إلى القراءة الآن».

بالله عليكِ يا هند.. ألا تعلمين أن القراءة هي الراحة، وملاذٌ للهدوء وللفهم في زمن الضجيج ..طبعاً لم أقل ذلك علانية.. بل في سري، حتى لا أزيد النار حطباً!

وقبل أن أتمكن من التدخل فعلياً في هذا الصدام الصامت، انفتح باب الغرفة مرة أخرى، ودخلت أمي مسرعة، تليها خطوات أبي الثقيلة، ثم سامر.

صرخت أمي بلهفة وهي تركض نحوي: «ولدي ساعف! أخيراً استيقظتَ!»

احتضنتني بقوة كادت تقطع أنفاسي، وأخذت تقبّل وجهي وتمسح على شعري، ودموعها تنهمر بغزارة.

قالت بصوت مختنق: «كدتُ أموت من القلق عليكَ يا حبيبي».

وقف أبي عند قدم السرير يتأملني بنظرات ثابتة، حاول إخفاء قلقه خلفها. قال بصوت أراده

جافاً، لكنه خانه: «ما هذا النحس المصاحب لكَ؟».

رمقته أمي بنظرة شرسة، تحمل من التوبيخ ما تحمل.

أما سامر، فقد وقف بجانبي مباشرة، وقال وهو يحاول التخفيف من جو التوتر: «لقد أخفتنا يا أخي. في المرة القادمة تعرَّضْ للدهس في يوم مناسب، لا وسطَ صفقة مهمة كنتُ أتفاوض عليها».

حصل على نظرة زجر من أبي وأمي معاً تلك المرة!

بدت هند غير مرتاحة لظهور عائلتي، وقفت بتردد وقالت: «سأعود لاحقاً يا ساعف، حتى تستطيع قضاء بعض الوقت مع عائلتكَ».

لكن أمي اعترضتها قائلة: «لا داعي للمغادرة يا هند، أنتِ أيضاً من عائلتنا يا بنيتي».

هذه الجملة جعلت الجميع يتجمدون في أماكنهم، بدت هند مندهشة وسعيدة في

الوقت نفسه. أمّا آيدن، فقد شحب وجهها قليلاً. زمَّ أبي شفتيه بعدم ارتياح، في حين أن سامر قد حدق إليَّ بذهول. أمّا أنا، فشعرت بالحيرة! ماذا تقصد أمي بكلامها هذا؟

قالت هند بخجل مصطنع: «شكراً لكِ يا سيدتي، أنتِ في غاية اللطف. صحيح أنني كنتُ بجانب ساعف طوال الوقت منذ الحادث، حتى في سيارة الإسعاف رفضت الابتعاد عنه، لكن هذا هو الواجب. كل فتاة في مكاني ستفعل ما فعلته».

غمغمت آيدن بصوت منخفض: «كم هذا رائع! خاصة بعد أن تخليتِ عنه تماماً قبل شهور قليلة».

التفتت هند إليها بحدة: «ماذا قلتِ؟».

تدخل سامر بسرعة: «المهم الآن أنّ ساعف بخير، هذا ما يهم الجميع، أليس كذلك؟».

قال أبي بنبرة رسمية: «طبعاً. وبمجرد أن تتعافى، ستعود إلى المنزل للنقاهة. لن أقبل أن تبقى في تلك الشقة المتواضعة بعد الآن».

كان هذا طلباً لا اقتراحاً. أبي دائما هكذا، حتى في لحظات القلق لا يفقد سلطته.

قبل أن أتمكن من الاعتراض، انفتح الباب مرة أخرى ودخل رجلان، أحدهما طبيب بمعطفه الأبيض، والآخر يرتدي زياً رسمياً، ويبدو أنه ضابط شرطة.

قال الطبيب بابتسامة مهنية: «سعيد برؤيتكَ مستيقظاً يا أستاذ ساعف، أنا الدكتور سمير، المسؤول عن حالتكَ».

ثم أشار إلى الرجل الآخر: «وهذا الرائد هاشم من إدارة التحقيقات، يريد التحدث معكَ بخصوص حادث الدهس».

كدتُ أقول على سبيل الظرافة وإذابة الجليد السخيف، الذي تكوَّن في سماء الحجرة: «أيهما، الأول أم الثاني، أم الفاعل واحد في الاثنين؟».

لكني لم أفعل.

تقدّم الضابط، وسط نظرات قلقة من الجميع،

وقال: «سعيد برؤيتكَ بصحة جيدة يا أستاذ ساعف، أرجو أن تتعافى تماماً قريباً».

أومأتُ برأسي شاكراً، وانتظرتُ أسئلته حول الحادث، لكنّه فاجأني بسؤال غير متوقع تماماً.

«أستاذ ساعف: هل ذهبتَ مؤخراً إلى منزل قديم مهجور في منطقة الجهراء القديمة؟».

ارتجفت يداي. المنزل! الفتاة الشبح! المقبرة! كل تلك الذكريات المروعة تدفّقت إلى عقلي مرة واحدة.

«كيف... كيف عرفتَ؟».

تبادل الضابط نظرة مع الطبيب، ثم قال: «قبل أن تفقد وعيكَ بعد الحادث، كنتَ تهذي. تكلمتَ عن منزل، وفتيات مقتولات، ومقبرة سرية. هل كان ذلك مجرد هذيان بسبب الصدمة، أم أنكَ ذهبت فعلاً إلى ذلك المكان؟».

صمت الجميع بترقب. شعرتُ بأبي وأمي يتبادلان نظرات قلقة. حدقت هند إليَّ بفضول، وبدت آيدن

متوترة.

قلتُ بصوت متحشرج، وكأن حلقي قد صار صحراء قاحلة: «نعم، ذهبتُ إلى هناك بعد الحادث الأول، عندما فقدتُ ذاكرتي».

تقدّم الضابط خطوة نحوي، وقال بنبرة جادة: «وماذا رأيتَ هناك بالضبط؟».

أخذتُ نفساً عميقاً، وبدأت أحكي ما رأيتُه: المنزل المهجور، الفتاة الشبح، الملفات، الأسماء، تواريخ الاختفاء، المقبرة السرية تحت المنزل.

كان الضابط يدوِّن كل كلمة أقولها، وبدا أكثر اهتماماً مع كل تفصيل أذكره.

تبادل أبي نظرة قلقة مع أمي، وكأنّه يقول لها: «لقد جُنَّ ولدكِ! هذه نهاية متوقعة على أية حال لذلك الروائي الذي يتعاطى الخيال!». لكنّ الضابط تعامل مع ما أقوله بمهنية شديدة، وكأنه يتعامل بعقل آلي بارد، سألني:

«هل تتذكر أي أسماء من تلك الملفات؟».

فكّرت للحظة، ثم قلتُ: «نعم: سارة حمد، اختفت في مايو 2018. ليلى سعد، اختفت في أغسطس 2016. حبيبة العمري، اختفت في نوفمبر 2013. هناك المزيد، لكن هذه الأسماء هي التي أتذكرها بوضوح».

انتفض أبي وهو يقول بدهشة: «حبيبة العمري؟».

قال الدكتور سمير بحيرة: «مالها؟».

قال الضابط هاشم وهو يستوثق مني:

«حبيبة العمري بعينها!».

لم يبدُ أني قد فهمت، قال أبي مُفسِّراً: حبيبة العمري هي شقيقة راشد».

لاحظتُ صدمة على وجه الضابط، قال: «هذه أسماء حقيقية لفتيات مفقودات، إنها قضايا لم يتم حلّها منذ سنوات!.. كيف عرفتَ بهذا؟».

قلتُ بارتباك: «لا أعرف بالضبط. لقد رأيتُ

ملفاتهن في ذلك المنزل».

قال الضابط بحزم: «أستاذ ساعف، هذه معلومات خطيرة جداً. إذا كان ما تقوله صحيحاً، فنحن نتحدث عن جرائم قتل متسلسلة لم تُكتشف بعد».

بعد ساعات قليلة، كان فريق من الشرطة والطب الشرعي يحيط بالمنزل القديم الذي وصفته. لم أكن هناك بالطبع، لكن الضابط هاشم أبقاني على اطلاع عبر الهاتف.

قال لي بصوت متوتر: «لقد وجدنا شيئاً يا أستاذ ساعف.. شيئاً فظيعاً».

«ماذا وجدتم؟».

«حفرنا في المكان الذي وصفته بالضبط، في حديقة المنزل الخلفية. ووجدنا... رفات.. بقايا بشرية لعدة أشخاص».

انقبضت معدتي، إذن كانت حقيقة، وليست مجرد هلوسة أو كابوس.

قال الضابط: «الأمر الأكثر غرابة، هو أنّ الأسماء التي ذكرتها... وبعد أن بدأنا بالفعل في التعرف على بعض الجثث، أشارت المطابقة الأولية إلى أنهن الفتيات اللاتي ذكرت أسماءهن بالضبط».

شعرتُ بدوار شديد، كيف يمكنني معرفة كل هذا؟ هل السجلات الأكاشية التى تحدث عنها الدكتور حبيب حقيقية إلى هذا الحد؟ أم أن هناك تفسيراً آخر أكثر رعباً؟

قال الضابط بحذر: «أرجو ألّا تسيء فهمي يا أستاذ ساعف، لكن... كيف عرفتَ بكل هذه التفاصيل؟ هذه القضايا لم يتم ربطها ببعضها من قبل.. لم يعرف أحد أن أولئكَ الفتيات قد قُتلن، ناهيك عن مكان دفنهن!».

شعرتُ بالقلق يزداد في صوته، قلتُ محاولاً الشرح: «كما أخبرتكَ، لا أعرف بالضبط، كان هناك شيء غريب يحدث لي منذ إصابتي الأولى، إذ أستطيع رؤية أشياء لا أعرف مصدرها».

صمت للحظة، ثم قال: «سأكون صريحاً معكَ يا أستاذ ساعف، هناك احتمالان: إمّا أنكَ تملك بالفعل قدرة غير عادية على معرفة أشياء لا يمكن معرفتها بطرق طبيعية...»

توقّف قليلاً، ثم أكمل: «أو أنكَ متورط بطريقة ما في تلك الجرائم».

تجمّد الدم في عروقي، مستحيل! كيف يمكن أن يفكر بأنني قاتل متسلسل؟

«هذا سخيف! كيف يمكنني قتل كل أولئك الفتيات؟ بعضهن اختفى منذ سنوات، عندما كنتْ في مراحل دراستي المختلفة!».

قال بهدوء: «نحن لا نتهمك بشيء في هذه المرحلة، لكن عليكَ أن تتفهم موقفنا. لديكَ معلومات لا يمكن لأحد معرفتها إلا إذا كان متورطاً، أو كان على اتصال وثيق بالقاتل الحقيقي».

«أنا لستُ قاتلاً! ولا أعرف من فعل ذلك!».

«إذن ساعدنا يا أستاذ ساعف، ساعدنا في فهم كيف عرفتَ بكل هذا».

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

عاد الضابط هاشم إلى المستشفى في المساء، يصحبه ضابط آخر أكبر رتبة. كان يحمل ملفاً سميكاً.

قال الضابط الكبير: «أستاذ ساعف، أنا العقيد مهنا، رئيس قسم مكافحة الجرائم الكبرى. لدينا بعض الأسئلة الإضافية لكَ».

جلس العقيد على كرسي بجانب سريري، وفتح الملف الذي يحمله. كانت فيه صور للمنزل وللحفريات ولبقايا بشرية وفتيات مفقودات.

«لقد عثرنا على رفات تسع فتيات حتى الآن، التحليل الأولي يتطابق مع ثلاثة من الأسماء التي ذكرتها بالضبط، وهذا... غير عادي للغاية».

حاولتُ الدفاع عن نفسي: «كما قلتُ للرائد هاشم، أنا لا أعرف كيف عرفت بهذا. لكنني لستُ

قاتلاً».

قال العقيد: «نحن لا نتهمكَ بقتلهن يا أستاذ ساعف، لكننا نعتقد أنكَ قد تكون على اتصال بالقاتل بطريقة ما. هل هناك أي شخص تشتبه به؟».

فكرتُ للحظة، ثم خطرت لي فكرة مزعجة: «الدكتور حبيب».

«من؟».

«الدكتور حبيب المنصور، طبيب ظهر في حياتي بعد حادثتي الأولى. يعرف الكثير عن حالتي، وعن قدرتي الغريبة على رؤية أشياء لا يمكنني معرفتها».

«هل لديكَ أي معلومات اتصال به؟».

بحثتُ في هاتفي ووجدتُ رقمه، أعطيته للضابط الذي سجّله على الفور.

«سنستمر في التحقيق في هذا الأمر يا أستاذ

ساعف. في غضون ذلك، أرجو أن تبقى متاحاً للأسئلة الإضافية، ولا تغادر البلاد حتى إشعار آخر».

(15)

مرَّ أسبوع منذ اكتشاف المقبرة السرية، أسبوع من التحقيقات المتواصلة، والأسئلة التي لا تنتهي، وأخبار كشف المزيد من الجثث. تسع فتيات في البداية، ثم اثنتا عشرة، ثم سبع عشرة... وأخيراً، ثلاث وعشرون ضحية، بالضبط كما ذكرتُ للشرطة.

وهذا ما جعل الشكوك تزداد حولي.

جلستُ في غرفة باردة في إدارة التحقيقات، كنتُ قد خرجت من المستشفى منذ أقل من يوم، وفوجئتُ بدعوة «ودّية» للمثول أمام المحققين. أمامي مباشرة جلس العقيد مهنا، رئيس قسم مكافحة الجرائم الكبرى، وإلى جانبه الرائد هاشم، وضابطة شابة تُسجِّل كل كلمة يتم تبادلها.

وضع العقيد مهنا ملفاً سميكاً على الطاولة، وفتحه ببطء مُتعمَّد. كان يحتوي على صور مروعة لبقايا الجثث المستخرجة، وتقارير الطب الشرعي،

وصور للفتيات قبل اختفائهن.

قال العقيد بصوت هادئ: «أستاذ ساعف، أشكركَ على قدومكَ. كما تعلم، نحن نحقق في واحدة من أكبر جرائم القتل المتسلسلة في تاريخ البلاد».

أومأتُ برأسي بصمت منتظراً ما سيقوله بعد ذلك.

تابع العقيد: «لقد تمّ استخراج رفات ثلاث وعشرين فتاة من الموقع الذي أرشدتنا إليه. جميعهن اختفين على مدار اثني عشر عاماً. وهذا العدد... مطابق تماماً لما ذكرته لنا».

«نعم، هذا ما رأيته في المنزل».

«وليس هذا فحسب، بل إن أسماء الضحايا الثلاث التي ذكرتها - سارة حمد، ليلى سعد، حبيبة العمري - تطابقت تماماً مع نتائج تحليل الحمض النووي والأدلة الجنائية».

صمتَ للحظة، ثم قال بنبرة أثقل: «ما يدفعنا

إلى طرح السؤال الأكثر إلحاحاً: كيف عرفتَ بكل هذه التفاصيل؟».

تنهدتُ بإرهاق: «كما أخبرتُ الرائد هاشم سابقاً، لا أعرف بالضبط. منذ إصابتي الأولى وفقدان ذاكرتي، أصبحتُ أرى... أشياء غريبة. كما لو أنّ لديّ اتصالاً بأحداث وبأماكن لا أعرفها».

قال العقيد مهنا: «وهل تتوقع منا تصديق هذا؟».

«أعلم أنه يبدو سخيفاً».

«بل يبدو مستحيلاً يا ساعف». قالها بصوت غاضب مخنوق، وحرمني للمرة الأولى من لقب أستاذ.

نظر إليّ العقيد بتمعن، ثم قال بصراحة مباشرة: «دعني أكون واضحاً: أنتَ المشتبه به الرئيسي في هذه القضية الآن».

قلتُ بضيق: « هل تعتقد أنني قتلتُ كل أولئك الفتيات؟».

أجاب العقيد ببرود: «ما التفسير المنطقي الآخر؟ لا أحد يمكنه معرفة كل هذه التفاصيل إلاّ إذا كان متورطاً مباشرة في الجريمة».

قلت محتجاً: «هذا مستحيل! بعض الفتيات اختفين عندما كنتُ في المدرسة الثانوية، والبعض الآخر عندما كنتُ في الجامعة، أو حتى خارج البلاد! يمكنكم التحقق من ذلك بسهولة».

ردّ العقيد: «بالطبع قمنا بذلك، وهذا ما يجعل المسألة أكثر تعقيداً. لذا طرحنا احتمالاً آخر: ربما كنتَ على علاقة بالقاتل الحقيقي».

قلتُ بملل: «لقد سمعتُ هذا الكلام من قبل حتى مللتُ منه. حسناً، سأسايركم: ومن يكون ذلك القاتل المفترض؟».

«أخبرنا أنتَ. لقد ذكرتَ الدكتور حبيب المنصور، الذي يبدو أنه اختفى تماماً منذ بدء التحقيق».

الدكتور حبيب! لم أفكر فيه كمشتبه به جدّي، لكنَّ اختفاءه المفاجئ يبدو مريباً بالفعل.

تابع العقيد: «لقد بحثنا عن الدكتور حبيب في كل مكان، لكن بلا جدوى. عيادته مغلقة، وشقته فارغة، ولا أحد رآه منذ أيام».

شعرتُ بضيق في صدري، الدكتور حبيب كان الشخص الوحيد الذي يفهم حالتي، وفكرة أنه قد يكون قاتلاً متسلسلاً كانت صادمة!

قلتُ متحدياً: «إذا كنتُ أنا القاتل، فلماذا سأفضح نفسي؟ لماذا سأخبر الشرطة عن المقبرة والجثث؟ هذا لا يمكن أن يكون منطقياً!».

ردَّ العقيد:

«قد يكون هذا بالضبط ما تريدنا أن نفكر به».

«ماذا تعني؟».

«أحياناً، يكشف القتلة المتسلسلون عن جرائمهم عمداً لأسباب مختلفة: الغرور، أو البحث عن الشهرة، أو لطلب القصاص منهم، أو حتى...

لإبعاد الشبهات عنهم».

ضحكت بسخرية: «إبعاد الشبهات عني؟ بإخبار الشرطة عن الجثث المدفونة سرّاً منذ سنوات؟».

قال الرائد هاشم الذي كان صامتاً طوال الوقت: «ربما كنتَ تعرف أن المكان أصبح مهدداً بالاكتشاف. ربما أردتَ التحكّم في الكشف بدلاً من انتظار حدوثه بالصدفة».

هززت رأسي بيأس: «هذا لا يمكن أن يكون حقيقياً. أنا روائي، أكتب قصصاً خيالية، لستُ قاتلاً!».

ابتسم العقيد ابتسامة باردة.

نظرتُ إلى العقيد بغيظ، ثم قلتُ: «أريد محامياً».

ابتسم العقيد: «بالطبع، هذا حقكَ. لكن تذكّر أننا لم نوجه إليكَ تهمة رسمية بعد. هذا مجرد حديث وديّ».

«لا يبدو ودّياً على الإطلاق».

«حسناً، يمكنكَ الذهاب الآن. لكن لا تغادر البلاد، وكُن متاحاً للاستدعاء في أي وقت».

هززتُ رأسي بضجر، فقد سمعتُها من قبل أكثر من مرة، وكنتُ أُدرك أنّه لا توجد أدلّة دامغة تُثبت كلامهم هذا، وإن هي إلّا محاولات لوضعي تحت ضغط حتى أعترف.

***

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

عدتُ إلى المستشفى في المساء، كان من المفترض أن أخرج منه تماماً، لكنّ الأطباء قرروا إبقائي تحت الملاحظة ليوم إضافي بعد التحقيق المرهق. غرفتي في الطابق الثالث كانت هادئة، هند وأفراد عائلتي غادروا بعد انتهاء ساعات الزيارة، وغدوت وحيداً.

حدّقت إلى السقف، أفكاري تتصارع في رأسي. كيف وصلتُ إلى هذا الموقف؟ مَن هو القاتل الحقيقي؟.. الدكتور حبيب، راشد العمري.. أم شخص آخر تماماً؟

كان الليل قد حلّ، والمستشفى يسوده الهدوء إلّا من صوت الممرضات وهن يتنقلن بين الغرف. أطفأتُ المصباح الجانبي راغباً في النوم، لكنّ عقلي المضطرب أبى أن يهدأ.

بعد ساعة تقريباً، سمعتُ صوتاً خافتاً عند الباب. فُتِحَ ببطء وتوقّعت أن تكون إحدى الممرضات جاءت تتفقدني كالعادة. لكنّ الشخص الذي دخل كان يرتدي ملابس داكنة، ويضع قناعاً أسود يغطي وجهه بالكامل.

تجمدّتُ في مكاني، لم يكن هذا ممرضاً أو طبيباً. ثمة شخص ما تسلّل إلى غرفتي في منتصف الليل!

المتسلل أغلق الباب بهدوء خلفه، ثم توجّه نحوي مباشرة. كان يحمل شيئاً في يده... محقناً!

قفزتُ من السرير بسرعة متجاهلاً الألم في جسدي المصاب، صرختُ: «من أنتَ؟ ماذا تريد؟».

لم يتكلّم المهاجم، انقضّ عليّ بحركة سريعة

محاولاً غرس المحقن في عنقي. تجنّبته بصعوبة، وارتطمتُ بالطاولة الجانبية، فسقطت الأدوات الطبية على الأرض مصدرة ضجيجاً، صرختُ بأعلى صوتي:

«ساعدوني!».

لكنّ الطابق كان هادئاً في تلك الساعة المتأخرة، وغرفتي في نهاية الممر.

عاد المهاجم للهجوم، هذه المرة بحركة أكثر عنفاً. التقطتُ إبريق الماء الزجاجي وقذفتُه نحوه، لكنّه تفاداه ببراعة. كان من الواضح أنّه مدرَّب جيداً على القتال. سألتُه وأنا أتراجع حول السرير محاولاً إبقاء مسافة بيننا:

«مَن أرسلكَ؟».

التزم الصمت.

قرَّر تغيير تكتيكه. قفز فوق السرير مباشرة، مندفعاً نحوي بحركة بهلوانية. لم أستطع تجنّبه هذه المرة. سقطنا معاً على الأرض، وكان فوقي

مباشرة، يضغط على صدري بركبته.

رفع المحقن عالياً مستعداً لغرسه في عنقي، كانت لحظة يأس. بكل قوة لدي دفعتُ جسدي جانباً، ومددتُ يدي ممسكاً بالقناع وأزحتهُ عن وجهه.

تجمّدتُ من المفاجأة، فقد كان وجهاً مألوفاً!

انتهز المهاجم لحظة ذهولي، ودفعني بعنف نحو الحائط. ارتطم رأسي وشعرتُ بدوار شديد. حاول غرس المحقن مرة أخرى، لكنّ صراخي المستمر وصوت المعركة جذب أخيراً انتباه أحدهم.

«ما الذى يحدث هنا؟».

أتى صوت حارس الأمن من آخر الممر.

التفت المهاجم بسرعة نحو الباب، ثم نحوي مرة أخرى متردداً.

قلتُ له بصوت لاهث: «انتهى الأمر».

لكنّه لم يستسلم. ألقى المحقن جانباً، ثم هرع نحو النافذة وفتحها بحركة سريعة. قبل أن أستوعب ما ينوي فعله، قفز إلى الخارج!

دخل حارس الأمن والممرضة بعدَه بثوان، ليجداني مستلقياً على الأرض، ورأسي ينزف، والغرفة في حالة فوضى كاملة.

«اتصلوا بالشرطة!».

صرختُ بهما، ثم قلت بعد برهة:

«لقد حاول شخص ما قتلي!».

***

وصل العقيد مهنا والرائد هاشم خلال نصف ساعة، تم تطويق المستشفى بالكامل، والبحث في كل ركن عن المهاجم، لكن من دون جدوى. اختفى تماماً، كما لو أنّ الأرض ابتلعته.

جلستُ على سرير غرفة جديدة، وبدأت الممرضة تضمد الجرح في رأسي، بينما كنتُ أُعطي إفادتي

للضابطين.

قال العقيد مهنا: «هل تستطيع وصف ذاك الشخص؟».

قلتُ متذكراً تلك اللحظة، وأنا أُزيح القناع عن وجهه:

«لقد رأيتُ وجهه بوضوح، كان...».

ترددتُ للحظة، كنتُ متأكداً مما رأيته، لكنّه كان أمراً غير متوقع تماماً. حثّني الرائد هاشم:

«كان منْ؟».

«لقد كان أحد حراس المستشفى، رأيته عدة مرات خلال فترة إقامتي هنا».

تبادل الضابطان نظرة ذات مغزى.

قال العقيد: «هذا يُفسّر كيف تمكّن من الدخول بسهولة. هل يمكنكَ التعرف عليه من الصور؟».

«بالتأكيد».

«وماذا عن المحقن الذي تحدثتَ عنه؟».

«لقد ألقاه قبل أن يهرب، لا بُدّ من أن يكون في الغرفة».

أمر العقيد بتفتيش الغرفة على الفور، وبالفعل تم العثور على المحقن تحت السرير. أخذه أحد المحققين بعناية، ووضعه في كيس أدلة. قال العقيد:

«سنرسله للتحليل لمعرفة محتواه».

سأل الرائد هاشم: «هل لديكَ أي فكرة لماذا يريد أحدهم قتلكَ؟».

«ألم تقُل إنّني قاتل متسلسل؟ ربما أحد أقارب الضحايا يريد الانتقام مني».

لم يتقبّل العقيد سخريتي، مطّ شفتيه بضيق، ثم قال بصرامة: «أو ربما شخص ما يخشى ممّا قد تكشفه ذاكرتكَ المفقودة إذا عادت إليكَ».

كانت تلك فكرة مُقلِقة لم تخطر في بالي، ماذا لو كان هناك المزيد ممّا لا أتذكره؟ أسرار أكثر

2575565132

خطورة؟

***

في صباح اليوم التالي، عاد العقيد مهنا. كان وجهه يحمل انفعالاً غريباً، مزيجاً من الانتصار والحيرة. قال وهو يضع جهازاً لوحياً أمامي:

«لدينا أخبار، لقد تمكّنا من الوصول إلى تسجيلات كاميرات المراقبة، شاهِدْ».

عرض لي مقطعَ فيديو يُظهر المهاجم وهو يتسلَّل عبر ممرات المستشفى، ويتجنب نقاط المراقبة ببراعة، حتى يصل إلى غرفتي. قلتُ مُعلّقاً:

«إنّه يعرف المستشفى جيداً كما هو واضح».

«بالضبط، وهذه لقطة أوضح له وهو يخرج من المستشفى بعد الهجوم».

أظهر لي صورة ثابتة مُقرّبة للوجه، كان هو بالفعل: الحارس الذي رأيتُه في المستشفى عدة

«بأنه تلقّى مبلغاً كبيراً لقاء محاولة قتلك».

«ومَن دفع له؟».

صمت الرائد للحظة، ثم قال: «أنتَ».

صعقتني المفاجأة: «ماذا؟! أنا؟! هذا جنون!».

«هذا ما يقوله. يدعي بأنكَ أنتَ من دفعتَ له مبلغاً لمهاجمتكَ، على أن يكون هجوماً غير قاتل، بحيث تنجو منه بأعجوبة».

«وما الهدف من ذلك حسب ادعائه؟»

«لإبعاد الشبهات عنكَ في قضية القتل المتسلسل».

شعرتُ بالغضب يجتاح كياني: «هذا هراء! كيف يمكن أن يصدِّق أحد هذا الهراء؟!»

«فواز يقول إنّه قابلكَ قبل أسبوع، فتحدّثت معه واتفقتما على التفاصيل، ودفعتَ له نصف المبلغ مُقدّماً».

«هذا مستحيل! كنتُ تحت الملاحظة الطبية

المستمرة طوال الأسبوع الماضي!».

«ليس تماماً، هناك فترات كنتَ فيها وحدكَ، أو خارج غرفتكَ».

تنهدتُ بإرهاق، كانت المؤامرة تزداد تعقيداً:

«وهل تُصدّق أنتَ هذا الهراء؟».

صمت الرائد للحظات، ثم قال: «شخصياً؟ لا، لا أُصدق. أعتقد أن أحدهم يحاول توريطكَ».

«مَن؟».

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

«هذا ما نحاول اكتشافه».

بعد انتهاء المكالمة، جلستُ على سريري أُحدِّق إلى النافذة بذهول. مَن يمكن أن يكون وراء هذه المؤامرة المعقدة؟ من لديه القدرة والدافع لتوريطي في جرائم قتل متسلسلة، ثم محاولة قتلي، ثم اتهامي بتدبير محاولة القتل؟

كل الاحتمالات ممكنة، وكلها مرعبة!

(16)

تقف سيارة أبي الفارهة أمام المستشفى، بانتظار خروجي بعد عشرة أيام قضيتُها بين أسرّة المرضى وغرف التحقيق. سائق سيارة العائلة يفتح لي الباب الخلفي ببشاشة، وأمي تجلس في الداخل، ترتدي عباءة أنيقة وعطرها المفضّل يملأ أرجاء السيارة برائحة الياسمين.

تحتضنني بقوة حالما أجلس بجانبها، وتقول بصوت يحمل مزيجاً من الفرح والقلق: «أخيراً، أعود بكَ إلى المنزل يا حبيبي».

أبتسمُ لها بإرهاق: «شكراً يا أمي».

تضع يدها فوق يدي، وتقول بحنان: «لن أسمح لكَ بالعودة إلى تلك الشقة المتواضعة مرة أخرى، ستبقى في فيلا العائلة حتى تتعافى تماماً، ثم... سنرى».

لم أعترض هذه المرة، فقد تفضي بك الضغوط في بعض المراحل إلى فقد طاقة الجدال، ثم

الاستسلام لكل ما يريده محيطكَ.

ثم إنني محاصر من كل جانب: الشرطة تعتبرني مشتبهاً به في قضية قتل متسلسل، والمجهول الذي حاول قتلي ما زال طليقاً رغم القبض على منفذ المحاولة، والدكتور حبيب اختفى تماماً، كل هذا جعل من فيللا العائلة الفخمة ملاذاً آمناً للاختباء مؤقتاً.

انطلقت السيارة بنا، تشقّ طريقها عبر شوارع المدينة المزدحمة. سألتني أمي عن تفاصيل كثيرة: حالتي الصحية، آلامي، نومي، شهيتي للطعام... لكنّها تجنّبت ذكر التحقيق أو قضية القتل المتسلسل. كانت تحاول خلق فقاعة آمنة حولي، كما اعتادت دائماً.

وصلنا إلى فيللا العائلة بعد نصف ساعة، كان المنزل كما تركتُه: بناء ضخم من طابقين، محاط بحديقة غنّاء ونافورة كبيرة في المنتصف. ثمة حرس أمن على غير العادة على البوابة الرئيسية،

وعاملون يتنقلون بخفة لتلبية طلبات السادة. إنه نموذج مصغّر من عالم أرستقراطي كنتُ قد هجرته طوعاً، وها أنذا أعود إليه مرغماً.

استقبلتنا الخادمة بابتسامة ترحيبية، ومدبرة المنزل وقفت تنتظر التعليمات. دخلتُ إلى البهو الفسيح، وشعرتُ بغرابة الموقف. قبل أشهر قليلة، غادرتُ هذا المكان غاضباً متمرداً (المرة التي زرتُ فيها الفيلا منذ أيام لا تُحتسب، فقد ظللتُ فترة قصيرة جداً لا تُحتسب هناك)، والآن أعود إليه منكسراً، مشتبهاً به في جرائم بشعة. قالت أمي وهي تقودني نحو الدرج الرخامي:

«غرفتكَ جاهزة كما تركتها».

لكنّ صوتاً صارماً أوقفنا: «ساعف».

التفتُ لأجد أبي واقفاً عند مدخل مكتبه، كان يرتدي زياً رسمياً كعادته، لكنّ وجهه كان يحمل تعبيراً لم أعتد رؤيته: مزيج من القلق والتردّد والحنان المكبوت. قلتُ بصوت هادئ.

«أهلاً يا أبي».

أشار برأسه: «تعالَ إلى مكتبي، أريد التحدث معكَ».

نظرتُ إلى أمي، التي ابتسمت بتشجيع: «اذهبْ، سأُجهِّز لكَ وجبة خفيفة في هذه الأثناء».

دخلتُ خلف أبي إلى مكتبه الفسيح، جدران مغطاة بألواح خشبية فاخرة، ومكتب ضخم من خشب الماهوجني، ومقاعد جلدية عميقة، وخزانة كتب تضم مؤلفات اقتصادية وإدارية نادرة، بعضها مُهدَى من مؤلفين مشهورين. كان هذا ملاذ أبي، حيث يقضي معظم وقته، يدير منه إمبراطوريته التجارية.

أشار لي بالجلوس على أحد المقاعد المريحة، بينما جلس هو على المقعد المقابل، وليس خلف مكتبه كعادته. قال بعد لحظات صمت: «كيف حالكَ الآن؟».

«أفضل.. الجروح تلتئم ببطء».

هزّ رأسه، ثم قال بنبرة جادة: « أنا لا أؤمن بكلمة واحدة ممّا يقوله هؤلاء الضباط».

فوجئتُ بصراحته، قلت: «ماذا تعني؟».

«أعني أنني لا أصدق أنكَ متورّط في جرائم القتل تلك، هذا غير منطقي تماماً».

شعرتُ بموجة من الامتنان تجتاحني رغم خلافاتنا، رغم تمردي عليه، رغم مغادرتي للمنزل... ها هو يقف بجانبي في أصعب لحظات حياتي.

أكمل أبي: «أنا أعرفكَ يا ساعف، قد تكون متمرداً عنيداً مندفعاً أحياناً، أحمق إلى أبعد الحدود، لكنني لم أُربِّ قاتلاً».

صمتَ للحظة، ثم أكمل: «لقد عيّنتُ أفضل محامٍ في البلاد للدفاع عنكَ، وأوعزتُ إليه بإجراء تحقيق خاص بعيداً عن الشرطة».

«شكراً لكَ يا أبي».

ابتسم ابتسامة نادرة الحدوث: «أنتَ ابني،

ومهما كانت خلافاتنا ستظل ابني دائماً».

شعرتُ بعقدة في حلقي، هذه اللحظة التي لطالما انتظرتها: لحظة تقبُّل أبي لي، الاعتراف بوجودي، احترام خياراتي حتى لو اختلفت مع خياراته.

ثم نهض وفتح خزانة صغيرة قرب مكتبه، وأخرج منها علبة صغيرة. فتحها وأخرج منها ساعة فضية أنيقة.

قال وهو يقدِّمها لي: «هذه كانت لوالدي، ورثتها عنه، وكنتُ أنتظر اللحظة المناسبة لأعطيها لكَ».

أخذتُ الساعة بحذر، كانت ثقيلة صلبة عتيقة، لكنّها آلية دقيقة في عملها، وما زالَت سليمة تماماً.

قال أبي: «إنها رمز للوقت يا ساعف، وليس فقط لمروره، بل لقيمته. والدي كان يقول دائماً: «الوقت ثمين، لكن بعض اللحظات لا تُقدّر

بثمن».

ثم أكمل بصوت مشحون بالانفعالات: «وهذه لحظة من تلك اللحظات الثمينة».

احتضنني للمرة الأولى منذ سنوات طويلة احتضاناً صادقاً، ليس فيه تكلُّف ولا تصنُّع، احتضان الأب لابنه. أغمضتُ عينيَّ وشعرتُ براحة غريبة، كما لو أنّ جزءاً من الحمل الثقيل على كتفي قد أُزيح فجأة.

ثم سمعنا صوت قرع خفيف على الباب، كانت أمي تحمل صينية عليها مشروبات ساخنة وبعض الحلويات المنزلية.

قالت مبتسمة: «ظننتُ أنكما قد ترغبان فى تناول شيء ما».

دخلَت ووضعَت الصينية على الطاولة الوسطى، ثم جلسَت معنا. كنا ثلاثتنا معاً، للمرة الأولى منذ زمن طويل، نتحدث بدفء، من دون توتر، من دون خلافات.

قالت أمي: «غرفتكَ جاهزة يا ولدي، وقد وضعتْ فيها مكتباً صغيراً وبعض الكتب، لأنني أعرف أنكَ تحبّ القراءة والكتابة».

ابتسمتُ لها بامتنان: «شكراً يا أمي».

قال أبي: «استرح وتعافَ، وعندما تكون مستعداً يمكننا التفكير في الخطوة التالية».

من الغريب أنه لم يقُل «عُد إلى الشركة» أو «ابدأ العمل معي» كما كنتُ أتوقّع. كان هناك احترام جديد لخياراتي، اعتراف بمساري المختلف.

***

أمضيتُ الأيام الثلاثة التالية في فيللا أبي مستمتعاً برفاهية المكان، وبرعاية أمي المستمرة، وباحترام أبي الجديد. كان سامر يزورني كل مساء، يحدّثني عن مجريات العمل في الشركة، ويسألني عن القضية، لكنّه كان حذراً من أن يضغط عليَّ.

اتصلت هند مرات عديدة لتطمئن عليَّ، وأرسلت

آيدن باقة من الزهور مع رسالة لطيفة. الرائد هاشم أبقاني على اطلاع بتطورات القضية، التي لم تشهد جديداً يُذكر.

لكن رغم كل هذا الدفء العائلي الجديد، ظلّ ذهني مشغولاً بالقضية الغامضة التي أنا متهم غارق في غياهبها من شعر رأسي حتى أخمص قدميَّ: مَن هو القاتل الحقيقي؟ ما علاقة الدكتور حبيب بكل هذا؟ ولماذا اختفى فجأة؟ ما الرابط بين راشد العمري وهذه الأحداث كلها؟

في اليوم الرابع، قررتُ الخروج من حالة السكون والبدء في التحرّك. إذا كانت الشرطة تعتبرني مشتبهاً به، فالأفضل أن أبحث بنفسي عن الحقيقة.

جلستُ في غرفتي، أمام الحاسوب المحمول الذي جلبه لي سامر من شقتي، وبدأت أُدوّن كل ما أعرفه:

- فقدتُ ذاكرتي بعد شجار مع راشد العمري في

مستودع مهجور.

- الدكتور حبيب المنصور أخبرني أنّه وجدني مصاباً، وعالجني في عيادته.

- بعد إصابتي، أصبحتُ أملك قدرة غريبة على معرفة أسرار الآخرين، وربما على رؤية أحداث لم أحضرها.

- الدكتور حبيب سمَّى هذه الحالة «السجلات الأكاشية».

- اكتشفتُ مقبرة سرّية تضم جثث 23 فتاة مفقودة.

- الشرطة تعتبرني مشتبهاً به في هذه الجرائم.

- شخص ما حاول قتلي في المستشفى، وادّعى بأنني أنا من دفعتُ له المال لقاء ذلك.

- الدكتور حبيب اختفى تماماً منذ بدء التحقيق.

نظرتُ إلى هذه النقاط، وبدأتُ أبحث عن روابط

بينها. كان هناك عنصران متكرران: راشد العمري والدكتور حبيب، بما أنّ ثمة علاقة وطيدة تربطهما، إذ إنّ راشد قد تسبَّب له في مقتل زوجته!

قررتُ أن أحاول الاتصال بالدكتور حبيب مرة أخرى، أخرجتُ هاتفي واتصلتُ برقمه، لكن كالعادة، كان الرد الآلي: «الرقم الذي طلبته مغلق، أو خارج منطقة التغطية».

حسناً، إذا لم يأتِ الدكتور حبيب إليَّ، سأذهب أنا إليه.

انتظرت حتى حلّ المساء، أخبرتُ أمي أنني سأذهب للنوم مبكراً، ثم تسلّلتُ من باب الحديقة الخلفي إلى الشارع. أوقفتُ سيارة أجرة وطلبتُ من السائق الذهاب إلى عنوان عيادة الدكتور. اضطررتُ إلى الكذب، فلن تسمح لي أمي بالمغادرة مهما كان عذري.

كانت المنطقة هادئة نسبياً في تلك الساعة

المتأخرة، عيادة الدكتور تقع في بناية قديمة، ليست فخمة، لكنها في منطقة محترمة. طلبتْ من سائق الأجْرة أن ينتظرني، ثم توجهتُ نحو البناية.

لاحظتُ أن الأضواء مطفأة في المدخل، واللافتة التي تحمل اسم العيادة قد أُزيلت. وصلتُ إلى الباب، كان مغلقاً كما توقعتُ. حاولتْ النظر من خلال النافذة الزجاجية، لكن ستائر سميكة كانت تحجب الرؤية.

كنتُ على وشك الاستسلام والعودة، عندما لمحتُ بصيصَ نور خافتٍ يتسرّب من تحت الباب. هناك شخص ما في الداخل!

طرقتُ الباب بحذر، لا استجابة!. طرقتُ مرة أخرى، هذه المرة بقوة أكبر، سمعتُ حركة خفيفة في الداخل، لكنّ أحداً لم يفتح الباب.

نظرتُ حولي، ثم قررتُ اتخاذ خطوة جريئة. تذكرتُ أن الدكتور كان يُخبّئ مفتاحاً احتياطياً

تحت زهرية صغيرة عند مدخل العيادة. كنتُ قد رأيتُه يستخدمه في زيارتي السابقة. تحسستُ المكان، وبالفعل كان المفتاح ما يزال هناك.

فتحتُ الباب بهدوء شديد، ودخلت إلى العيادة. كان الظلام دامساً في الممر، لكن كان هناك ضوء خافت يأتي من الغرفة الخلفية، من مكتب الدكتور.

اقتربتُ بخطوات حذرة، وأنا أُصغي إلى أي صوت، سمعتُ همهمة خافتة، ثم صوتَ أنين مكتوم.

توقفت نبضات قلبي للحظة، هل الدكتور حبيب مصاب؟ هل هو في خطر؟

وصلتُ إلى باب المكتب الذي كان مفتوحاً قليلاً، دفعتُه برفق، وما رأيتُه جعلني أتسمَّر في مكاني من شدة الصدمة.

راشد العمري، الذي كان يهدِّدني في المستشفى قبل أيام، كان مقيداً إلى كرسي وسطَ الغرفة. فمه مكمّم، ووجهه متورّم وعليه

آثار ضرب واضحة، ملابسه ممزقة وعليها بقع من الدم.

وأمامه يقف حبيب ممسكاً بمحقن في يده، ووجهه يحمل تعبيراً لم أره من قبل: مزيج من الغضب والسادية والانتصار.

قال الدكتور حبيب بصوت هادئ مخيف: «والآن هل ستعترف؟ هزّ راشد رأسه بذعر محاولاً التكلُّم عبر الكمامة.

أزاح الدكتور حبيب الكمامة عن فمه، وقال: «تكلّم».

قال راشد بصوت متعب مبحوح: «لا أعرف عمّا تتحدث... أرجوك... أنا لستُ القاتل».

ضحك الدكتور حبيب بسخرية قاسية: «بالطبع أنتَ القاتل، كل الأدلة تشير إليكَ. الشرطة فقط غبية جداً عن إدراك ذلك، لكنني لستُ غبياً».

قال راشد بتوسل:

«لماذا أنتَ مصمم على أنني مَن فعلتها؟».

صرخ حبيب بمقت:

«لقد رأيتُكَ، للحظة سقط الضوء على وجهكَ، وعرفتُ أنكَ من فعلها. أنتَ من تسبّب في خسارتي لزوجتي».

«لستُ أنا».

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

صفع الدكتور حبيب وجهه بقوة، وصرخ: «كفى كذباً!»

شعرتُ بتجمُّد الدم في عروقي. ماذا يحدث هنا؟ لماذا يستجوب الدكتور حبيب راشد بهذه الطريقة الوحشية؟

وفجأة، لمحني راشد. اتسعت عيناه بذهول، ثم صرخ: «ساعف؟! ساعدني أرجوك!»

التفتَ الدكتور حبيب بسرعة، وعيناه تتسعان بصدمة مماثلة عندما رآني واقفاً عند الباب. قال بصوت مضطرب:

«ساعف! ماذا تفعل هنا؟».

وقفتُ مشدوهاً، لا أعرف ماذا أقول أو أفعل. أمامي رجل كنتُ أثق به، طبيب ساعدني في فهم حالتي، يقوم بتعذيب رجل آخر بطريقة وحشية.

«دكتور حبيب... ماذا تفعل؟»

سكتَ للحظة، ثم قال بهدوء مخيف: «أنا أحقق العدالة يا ساعف، وهو أمر لم تستطع الشرطة فعله».

قلتُ مستنكراً وأنا أشير إلى راشد:

«بتعذيبه!».

«هو يستحق أكثر من ذلك، إنه القاتل يا ساعف.. هو من قتل زوجتي. لقد كنتُ أراقبه لفترات طويلة، حتى أعرف سير حركته وإلى أين يذهب، وقد اقتنصتُ بقعة عمياء، يمكنني فيها اختطافه من دون أن يشعر به أحد».

ضربتُ كفاً بكف:

«لقد أصابكَ الجنون!».

«وكيف عرفتَ ذلك؟»

«إنّه يكذب! أنا لستُ القاتل! . . هو يحاول توريطي!».

قلتُ له بضيق:

«لا تتظاهر بالنزاهة، لقد رأيتُكَ وأنتَ تفعلها، حتى لو بدون قصد.. لكنكَ فعلتها».

بدت الدهشة على وجه حبيب، يبدو أني لم أخبره بتلك المعلومة تحديداً أثناء لحظة استبصاري العجيبة!

قال راشد بحيرة: « كيف رأيتَني؟».

رمقتُه بصمت، وكأني أُحفِّزه على نزع قناع البراءة عن وجهه، لكنه لم يفهم بعد. التفتُ إلى الدكتور حبيب، وسألته:

«أريدُ بعض التفاصيل يا دكتور، ماذا حدث في

تلك الليلة؟».

(17)

قال الدكتور حبيب:

قبل ثلاثة أشهر أو أكثر بقليل، كنتُ في سيارتي مع زوجتي وابنتي، كنا عائدين من حفل عشاء. كانت ليلة جميلة... كانت آخر ليلة جميلة في حياتي».

توقّف للحظة وكأنه يستجمع قواه، ثم أكمل: «عند تقاطع شارع الخليج مع الطريق السريع، صدمتنا سيارة رياضية حمراء كانت تسير بسرعة جنونية، فانقلبت سيارتنا عدة مرات، وحين استعدتُ وعيي، كانت زوجتي قد.....».

خنقتُه العبرات، وأغمض عينيه بقوة، كما لو كان يحاول منع نفسه من الانهيار، ثم فتحهما مجدداً، وقد تحوّلتا إلى جمرتين من الغضب، وقال بقسوة:

«كان السائق سكران، كان مخموراً إلى درجة أنه بالكاد استطاع الوقوف. أَوَتعرفُ من كان ذلك

السائق المخمور؟».

أدار رأسه ببطء نحو راشد: «هذا الوغد».

هزّ راشد رأسه بيأس، وحاول الكلام عبر كمامته. أزاحها الدكتور حبيب بحركة عنيفة وقال: «تكلَّم.. دافعْ عن نفسك. أريد أن يسمع ساعف اعترافكَ بنفسه».

قال راشد بصوت مبحوح: «نعم، كنتُ أنا سائق تلك السيارة، وكنتُ مخموراً. أنا... أنا آسف!».

صرخ حبيب:

«آسف! زوجتي ماتت، وكل ما يمكنكَ قوله هو ‹آسف›؟».

ثم التفت إليَّ وقال: «هل تعرف ماذا فعلتْ حينها؟ ذهبتُ إليه.. ذهبتُ إلى مكتبه في شركته العملاقة مطالباً بالعدالة. أَوَتعرف ماذا فعل؟».

صمتَ راشد، وخفض رأسه بخزي.

بدأتُ أفهم لماذا يكره حبيبٌ راشد

بهذا التطرف.

قال الدكتور حبيب: «أمرَ رجال الأمن بطردي من الشركة، طردني كالكلب! أنا الذي فقدتُ زوجتي بسببه، ثمّ طردي كمتسول متطفل!».

ثم نظر إلى راشد بكراهية عميقة: «أتذكرُ ذلك اليوم يا راشد؟ كنتَ تقف خلف مكتبكَ الفخم، تنظر إليَّ باحتقار وتقول لرجال الأمن: «أَخرجوا هذا المختل من هنا، وتأكّدوا من أنّه لن يعود أبداً».

تنهد راشد بعمق، ثم قال: «نعم، أتذكّر. كنتُ خائفاً.. خائفاً من الفضيحة، من مواجهة الحقيقة. خشيتُ أن تؤثّر القضية على صفقات الشركة، على سمعتي. كنتُ... جباناً».

قال الدكتور حبيب: «وبعدها، قدّمتُ بلاغاً للشرطة، وظننتُ أن العدالة ستأخذ مجراها. لكنكَ استخدمتَ نفوذكَ ومالكَ، وجلبتَ أفضل المحامين، وخرجتَ منها بريئاً!.. يا للمهزلة!»

نظرتُ إلى راشد، الذي بدا وكأنّه انكمش في كرسيه، قال بخفوت: «لا أستطيع إنكار ذلك. لقد استخدمتُ علاقاتي ونفوذي للإفلات من العقاب».

شعرتُ بمزيج من الغضب والازدراء تجاه راشد، كيف يمكن لإنسان أن يكون بهذه القسوة والأنانية؟ قتلَ امرأة بتهوره، ثم هرب من العواقب بفضل نفوذه وأمواله؟

لكنْ الدكتور حبيب لم ينته بعد، قال بصوت أجش: «حتى ذلك الحين، كنتُ أحاول التمسك بالقانون، بالعدالة الرسمية.. لكن بعد خروجك بريئاً، أدركتُ أنّ العدالة لا تأتي إلى الضعفاء في هذا العالم».

ثم أكمل: «وبينما كنتُ أحاول التعايش مع خساراتي.. مع الظلم، حدثت المأساة الثانية. اختفت ابنتي فدوى، ذات السبعة عشر ربيعاً في ظروف غامضة منذ أيام».

التفتُ إليه بحدة.

هزَّ رأسه وقد لاحظ ذهولي: « نعم، هذا ما حدث. ابنتي اختفت، وكأنّ الأرض ابتلعتها!».

التفتَ نحو راشد وعيناه تقدحان شرراً: «وحينها علمتُ.. علمتُ أنكَ أنتَ مَن اختطفها».

رفع راشد رأسه بفزع، وقال: «ماذا؟! هذا جنون!.. أنا لم أختطف ابنتكَ! لم أرها في حياتي!».

صرخ حبيب:

«كاذب! لقد رأيتُكَ!.. رأيتكَ تراقب منزلنا قبل اختفائها بأيام!».

«أعترف بهذا، لكن هذا بسبب غيظي منكَ. كانت زيارة لمنزل خصم لي يسبب لي صداعاً، لكن أن أختطف ابنتك! نعم، أنا مذنب في حادثة زوجتكَ، وأنا ارتكبت خطأ فظيعاً بالهروب من العواقب... لكنني لستُ خاطفاً، ولا قاتلاً!».

كان هناك صدق غريب في صوت راشد، رغم كل عيوبه وأخطائه السابقة، وفجأة أدركتُ شيئاً...

قلتُ بحذر:

«ألم تسمع بالمقبرة يا راشد؟».

قال بحيرة:

«أي مقبرة؟».

قلتُ بضيق:

«المقبرة التي وجدوا فيها أختكَ حبيبة.. رفاتها بمعنى أدق».

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

***

كان هناك توتر ثقيل يملأ الغرفة، قررتُ تغيير مسار الحديث قليلاً، محاولاً تهدئة الوضع، خاصة وأنّ صمتاً غريباً قد اعترى راشد بطبيعة الحال بعد سماعه هذا الخبر. قلتُ:

« أريد أن أسألكَ سؤالاً مختلفاً تماماً يا راشد».

بدا شارداً، لكنّه أومأ برأسه.

«ماذا عن هند؟ بِمَ شعرتَ عندما تخلت عنكَ

لأنها تحبني؟».

فوجئ راشد بسؤالي، ولاحظتُ نظرة استغراب من الدكتور حبيب أيضاً.. لكنني كنتُ أحاول إيجاد حقيقة أخرى وسط كل هذه الأكاذيب.

ضحك راشد ضحكة مريرة، وقال: «هند؟ هل تظن أنها تخلّت عني من أجلكَ، لأنها تحبكَ؟».

سألته:

«أليس هذا ما حدث؟»

هزّ رأسه نفياً:«لا يا ساعف، أنا من تخلى عنها».

قلتُ بحدة:

«أنتَ تكذب، هي أخبرتني بنفسها».

قال راشد:

«بالطبع ستقول ذلك، وهل تعرف لماذا تخليتُ عنها؟ بسبب ما حدث في المستودع معكَ. خشيتُ الفضيحة، خشيتُ أن يصل الأمر إلى الصحافة،

قلتُ بتشكك:

«لا أصدقكَ، أنتَ تحاول فقط أن تظهر بمظهر المسيطر».

ابتسم ابتسامة متعبة وقال: «حسناً، وماذا لو استطعتُ أن أثبتَ لكَ ذلك؟».

«كيف؟».

مال برأسه نحو جيب سترته وقال: «في هاتفي المحمول، في الجيب الداخلي لسترتي هناك تسجيل للمحادثة بيننا».

نظرتُ إلى الدكتور حبيب، الذي أومأ برأسه سامحاً لي بالاقتراب. بحذر شديد وصلتُ إلى السترة، وأخرجتُ الهاتف من الجيب الداخلي. قال راشد:

«أَدخِل الرمز 5829، ثم اذهبْ إلى التسجيلات الصوتية».

فعلتُ ما طلبه، ووجدتُ ملفاً صوتياً بعنوان

«هند - أخير».

شغّلته، وبدأتُ أسمع المحادثة:

صوت هند، يحمل نبرة مصدومة.

« لماذا تفعل هذا يا راشد؟»

«آسف يا هند، لكنني لا أستطيع الاستمرار في هذه العلاقة».

«هل هناك امرأة أخرى؟».

«لا، الأمر ليس كذلك. لكن بعد حادثة المستودع مع ساعف، لا أستطيع المخاطرة بمزيد من الفضائح».

«أي فضائح؟ كان مجرد شجار!».

«شجار انتهى بإصابته وفقدانه للذاكرة! لو وصل الأمر إلى الإعلام ستتضرر سمعتي وأعمالي بشدة».

«إذن أنتَ تضحي بعلاقتنا من أجل سمعتك؟».

خيَّم صمت قصير، تتخلله شهقات بكاء خافتة، قبل أن يقول راشد: «أتمنى لكِ التوفيق يا هند».

انتهى التسجيل، وأنا أشعر بالذهول. كان راشد يقول الحقيقة.. هند هي من كذبت عليّ، وادّعت بأنها تخلّت عنه من أجلي، بينما هو من تركها فعلاً. كذبت عليَّ أيضاً حين ادّعت بأنها لم تعرف شيئاً عن حادثة المستودع.

سألته:

«لماذا سجَّلتَ هذه المكالمة؟».

ابتسم ابتسامة ساخرة وقال: «لأنني تعلمتُ درساً قاسياً من تجاربي السابقة بأن أتحسّب دائماً لأي خديعة أو ابتزاز قد يحدث لاحقاً. هند امرأة جميلة ولكنها طموحة جداً، لم أثق بها تماماً».

الدكتور حبيب، الذي كان يستمع إلى الحوار

لا يُغيّر شيئاً. أنتَ ما زلتَ مذنباً بقتل زوجتي، وأنا متأكد من أنكَ مذنب أيضاً باختطاف ابنتي».

قال راشد بيأس:

«نعم، أنا مسؤول عن وفاة زوجتكَ، وهذا خطأ سأحمله طوال حياتي، لكنني لستُ خاطفاً أو قاتلاً!».

نقلتُ نظري بين الرجلين محاولاً فهم الحقيقة، من الواضح أنّ راشد كان رجلاً سيئاً مستغلاً لنفوذه، يهرب من عواقب أخطائه.. لكن هل كان قاتلاً متسلسلاً؟ هناك شيء في أعماقي كان يقول: لا. قلتُ بهدوء:

«دكتور حبيب: ما رأيكَ لو... لو سلّمناه إلى الشرطة، ليحاكم بشكل قانوني؟».

نظر إليّ بعينين باردتين، وقال: «الشرطة؟ والقانون؟ هل نسيتَ أنه أفلتَ من العقاب مرة من قبل؟».

أتمكّن من التفكير في ردّ مناسب، سمعنا صوتاً مكتوماً من خارج العيادة.

تجمّدنا جميعاً، ثم سمعنا طرقاً على الباب الخارجي، تبعه صوت رجل يقول: «شرطة! افتحوا الباب!».

نظر الدكتور حبيب إليّ بغضب: «هل اتصلتَ بهم؟».

هززتُ رأسي نفياً بسرعة: «لا، لم أفعل!».

التفتَ بعصبية نحو الباب، ثم نحو راشد، ثم نحوي مرة أخرى. كان مضطرباً وكأنه يحاول اتخاذ قرار سريع.

« اهدأ يا دكتور حبيب».

قلتُ محاولاً تهدئته.

«سلِّم نفسكَ إليهم، وأَخبِرهم بقصتكَ. سيتفهمون...»

ضحك بمرارة:

«يتفهمون؟! هل تعتقد أنهم سيتفهمون أنني اختطفتُ راشد وعذبتُه؟».

استمر الطرق على الباب أقوى هذه المرة، وصوت الضابط يكرر: «شرطة! افتحوا الباب الآن، أو سنضطر إلى كسره!»

قام الدكتور حبيب بحركة مفاجئة، ووجه المسدس نحو رأس راشد مباشرة، صرختُ:

«لاااااااا!».

عيناه كانتا تشعان بجنون لحظي، همس: «إذا لم أحصل على العدالة، فعلى الأقل سأحصل على الانتقام».

وقبل أن أتمكّن من منعه، ضغط على الزناد.

(18)

مرّ أسبوع منذ الحادثة في عيادة الدكتور حبيب، أسبوع من التحقيقات المكثفة والأخبار المتضاربة والتكهنات الصحفية. ما زلتُ أستعيد تفاصيل تلك الليلة المشؤومة في ذهني: صوت طلقة المسدس، صرختي المدوية، اقتحام الشرطة للمكان، الدكتور حبيب ينهار باكياً بعد أن أخطأ الطلقة وأصابت الحائط بجوار رأس راشد.

اليوم، تم الإفراج عن راشد بعد التحقيق معه. رغم وجود الأدلة على تورطه في حادثة وفاة زوجة حبيب وهروبه من العدالة سابقاً، لم تجد الشرطة أي دليل يربطه بجرائم أخرى. أما الدكتور حبيب، فقد تم توقيفه بتهمة الخطف والاعتداء، وهو الآن ينتظر محاكمته.

وأنا ما زلت أحمل وصمة الاشتباه، رغم تراجع الشكوك حولي قليلاً مع ظهور قصة الدكتور حبيب وانتقامه الشخصي. لم تتضح الصورة كاملة

بعد، ولم يُعرف بعد مَن هو القاتل الحقيقي للفتيات الثلاث والعشرين.

جلست في فيللا أبي، أُحدّق من النافذة إلى الحديقة الخارجية المنسقة بعناية. كانت والدتي تُشرف على أعمال البستنة، وكان أبي في اجتماع مهم في مكتبه كالعادة. أسبوع من العودة إلى المنزل العائلي، وبدأتُ أشعر بألفة غريبة، رغم كل ما يحدث من حولي.

رنَّ جرس الباب، نهضت ببطء ورأيت الخادمة تتجه لفتحه. سمعتُ صوتاً أنثوياً مألوفاً، ثم رأيتُها: هند.

دخلت إلى البهو بثقة مزعجة، كأنها تنتمي إلى هذا المكان. كانت ترتدي فستاناً أصفرَ أنيقاً، وتحمل حقيبةَ يد فاخرة، وتنتعل حذاءً بكعب عالٍ يصدر صوتاً إيقاعياً على أرضية الرخام. قالت بلهفة مصطنعة وهي تتقدّم نحوي:

«ساعف، حبيبي!».

قلتُ ببرود: «ماذا تفعلين هنا؟».

تظاهرت بالدهشة: «ألم تخبركَ والدتكَ؟ لقد دعتني إلى تناول الغداء معكم اليوم».

«أأمي دعتكِ؟».

«بالطبع. أنا الآن جزء من العائلة، ألم تعلم؟».

دخلت أمي في تلك اللحظة، وقالت بابتسامة متكلفة: «أهلاً هند، لقد وصلتِ في الوقت المناسب. الغداء سيكون جاهزاً خلال نصف ساعة».

لاحظتُ توتراً في صوت أمي، وتصنّعاً في ابتسامتها. كانت هناك نبرة قلق خفية في كلماتها.

قالت هند: «شكراً لكِ يا سيدتي، أحببتُ الوصول مبكراً لقضاء بعض الوقت مع ساعف».

شعرتُ بالغضب يتصاعد داخلي، كيف أصبحت قريبة من أمي إلى هذه الدرجة؟

قالت أمي وهي تتحرك نحو المطبخ: «سأترككما وحدكما، استمتعا بوقتكما».

بمجرد خروج أمي، تغيّر وجه هند. اختفت الابتسامة المصطنعة، وحلّت محلها نظرة باردة، وهي تقول:

«هل نذهب إلى الحديقة؟ أريد التحدث معكَ على انفراد».

لم أُجبها، لكنّني توجهتُ نحو الباب المؤدي إلى الحديقة الخلفية، تبعتني هند بخطوات ثابتة. وصلنا إلى ركن هادئ، بعيداً عن أعين الخدم وآذان المتطفلين.

قلتُ بدون مقدمات: «لماذا كذبتِ عليَّ؟».

رفعت حاجبيها بتصنّع: «أي كذب تقصد يا عزيزي؟».

«كذبكِ حول راشد. قلتِ إنكِ تركتِه لأنكِ تحبينني، بينما الحقيقة هي أنه هو من تخلّى

للحظة، رأيتُ الصدمة تعبر وجهها، ثم استعادت هدوءها بسرعة مذهلة، وقالت: «لا أعرف عمّا تتحدث».

«لديَّ دليل يا هند، تسجيل صوتي لمكالمتكما. راشد أخبرني بكل شيء».

ضحكت ضحكة قصيرة، ثم قالت: «أَوَتصدِّق راشد العمري؟ الرجل الذي قتل زوجة الدكتور حبيب، وتملّصَ من العقاب؟».

«هناك تسجيل يا هند. سمعته بنفسي».

حدّقت إليّ للحظة، ثم قرّرت تغيير تكتيكها. تنهدت بعمق، وقالت: «حسناً، نعم.. راشد هو من تركني، لكن هذا لا يُغير شيئاً، أنا أحبكَ فعلاً».

قلتُ بحدة:

«كُفّي عن الكذب! أنتِ لا تحبين أحداً سوى نفسكِ. أنتِ تبحثين فقط عن شخص ذي نفوذ ومال، شخص يمكنه مساعدتكِ في تحقيق

طموحاتكِ. كنتِ مع راشد لهذا السبب، والآن تريدين العودة إليَّ، لأنني ابن سعيد الجابري».

ابتسمت بسخرية: «صدِّقني.. الأمر أعمق من ذلك بكثير. أنتَ تظن أنكَ فهمتني، لكنكَ لا تعرف شيئاً».

قلتُ بحسم:

«أنا لا أريدكِ في حياتي بعد الآن، الأفضل أن تذهبي الآن».

وقفت بثبات، وقالت بهدوء خطير: « هذا غير ممكن يا عزيزي، نحن مرتبطان الآن بشكل لا يمكنكَ الفكاك منه».

«عمَّ تتحدثين؟»

ضحكت ضحكة رنانة، ثم قالت: «هل تعرف... لقد قابلتُ والديكَ قبل أسبوع، وجرت بيننا محادثة... مثمرة للغاية».

شعرتُ بتوتر غريب يسري في جسدي:

«ماذا فعلتِ؟».

جلست على مقعد خشبي قريب، ثم قالت بهدوء: «أخبرتُهما ببساطة أنكَ مهووس بيَ، وأنكَ هدَّدتني. قلتُ لهما إنكَ قلتَ بأنني إن لم أعُد إليك فستقتلني، وأنكَ قلت:«إما أن أحصل عليها أنا، أو لا يحصل عليها أحد»... تلك كلمات مخيفة جداً، ألا تعتقد ذلك؟».

تجمّدتُ في مكاني مصدوماً، لم أستطع التفوُّه بكلمة.

تابعت هند: «شرحتُ لهما بأن أمامي طريقاً من اثنين: إمّا أن أقبل العودة إليكَ، أو أن أُبلغ الشرطة بتهديداتكَ، وأُقدِّم شكوى رسمية ضدكَ بالتحرش والتهديد بالقتل».

قلتُ بصوت مضطرم من الغيظ وإن كان بطبقة منخفضة:

«هذا جنون! أبي وأمي يعرفان أنني لستُ هذا الشخص الذي تتكلمين عنه! لن يصدقا كذبة

سخيفة كهذه!».

ضحكت مستمتعة بردة فعلي: «والدكَ ووالدتكَ ليسا غبيين يا ساعف، هما يدركان أن الوضع معقد للغاية. أنتَ مشتبه به في قضية قتل متسلسل، وسمعتكَ الآن على المحك. بلاغ كهذا من شأنه أن يعزِّز فرضية أنكَ مهووس بالسيطرة على النساء، وأنكَ تهدِّد بالقتل حين لا تحصل على ما تريد».

صمتتْ للحظة، ثم أكملتْ: «تستطيع سؤالهما إن لم تصدقني. لقد وافقا - تحت الإكراه طبعاً - على قبولي في حياتكَ، وفي حياتهما لاحقاً من أجلكَ».

شعرتُ بخدر يسري في جسدي كله، أكانت تقول الحقيقة؟ هل هددت أبي وأمي حقاً؟ وهل استسلما لتهديدها؟

قلتُ بصوت منخفض مليء بالغضب: «أنتِ مجنونة».

ابتسمت ببرود: «لا، أنا ذكية فقط. أعرف متى ألعب أوراقي وأين. وقد ربحتُ يا عزيزي هذه اللعبة بالفعل».

نهضتُ بحركة مفاجئة، وقلتُ: «إذن سنرى، سأتحدث مع أبي وأمي الآن».

قالت بلا مبالاة:

«افعلْ إذن، سيكون هذا لطيفاً».

دخلتُ إلى المنزل بخطوات غاضبة، وهند تتبعني بهدوء. وجدتُ أبي قد خرج من مكتبه، وأمي تُشرف على إعداد المائدة. توقفا عن الحديث عندما رأياني قادماً بذلك الغضب الواضح. قلتُ بحدة:

«أبي.. أمي، علينا أن نتحدث».

نظرا إلى بعضهما بتوتر واضح، ثم قال أبي: «بالتأكيد. هل هناك مشكلة؟».

قلتُ بلا مواربة:

«هل هددتكما هند؟».

ساد صمت ثقيل للحظات، نظرت أمي إلى الأرض بحرج، بينما تصلّب وجه أبي.

قال أبي أخيراً: «لنذهب إلى المكتب، هذا ليس مكاناً مناسباً لمثل هذا الحديث».

دخلنا نحن الثلاثة إلى المكتب، وأغلق أبي الباب خلفنا. بقيت هند في الخارج تنتظر بثقة مستفزة.

«هل هدّدَتكما أم لا؟»

كررتُ سؤالي بمجرد أن أُغلِق الباب.

تنهد أبي بعمق، وقال: «ساعف، الوضع معقد...».

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

قاطعتُه بحدة:

«أجب على سؤالي!».

قالت أمي بصوت متهدج: «نعم، هدّدَتْنا».

شعرتُ بموجة من الغضب تجتاح كياني،

بالقتل؟ أنا؟!».

قال أبي بحزم:

«بالطبع لا، نحن نعرفكَ جيداً، ونعرف أنكَ لا تفعل مثل هذه التصرفات».

سألتُهما بمرارة:

«إذن لماذا استسلمتُما لتهديدها؟».

تبادل أبي وأمي نظرة قلقة، ثم قال أبي: « أنتَ لا تدرك مدى خطورة وضعكَ حالياً يا ولدي. أنتَ مشتبه به في قضية قتل متسلسل، ورغم تراجع الشكوك قليلاً ما يزال التحقيق مستمراً».

نفس كلام هند منذ قليل، سألته بغضب:

«وماذا عن كرامتنا؟ كيف نقبل الابتزاز من امرأة كاذبة مثلها؟».

قالت أمي بصوت حزين: «حاولنا يا حبيبي، حاولنا معها... لكنها كانت مصممة. قالت إنها ستذهب مباشرة إلى الشرطة، وستُقدّم شكوى رسمية،

وستتحدث للإعلام. تخيل العناوين: «(مشتبه به في قضية القتل المتسلسل يُهدِّد فتاة بالقتل)... هذا سيُدمّركَ تماماً».

قلتُ بمرارة:

«وهل الحل هو أن أتزوّجها؟! أنتما تريدان مني أن أقضي حياتي مع امرأة تكرهني وتهدّدني وتهدّدكما؟».

قال أبي بحزم:

«نحن لا نريدكَ أن تتزوجها.. نحن فقط نريد منكَ أن... أن تلعب اللعبة لفترة، حتى تنتهي القضية وتثبت براءتكَ وتستعيد حياتكَ».

صمتَ للحظة، ثم قال بصوت أكثر هدوءاً: «ثِقْ بي، بمجرد أن تنتهي هذه الأزمة ستخرج هند من حياتنا إلى الأبد».

قلتُ وقد بلغ غضبي ذروته:

«لا أصدق ما أسمعه! أنتما تطلبان مني أن

أتظاهر بحب امرأة صِرتُ أحتقرها. . أن أعيش كذبة!».

قالت أمي بإشفاق: «أرجوكَ يا ساعف افهمنا، نحن فقط نحاول حمايتكَ».

هززتُ رأسي:

«أبهذه الطريقة؟ لا، هذا مستحيل!.. لن أقبل هذا».

توجهتُ نحو الباب، وقلتُ: «سأطردها الآن، وليحدث ما يحدث».

قال أبي بصوت صارم: «لا تكن متهوراً، فكِّرْ في العواقب!».

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

قلتُ وأنا أفتح الباب:

«لا يهمني، لن أعيش كذبة».

خرجتُ من المكتب لأجد هند واقفة في البهو، تتحدث مع أحد الخدم ببشاشة مصطنعة. عندما رأتني ابتسمت بتحدٍ.

توجهتُ إليها مباشرة، وقلتُ بصوت حاسم: «اخرجي من هذا المنزل الآن».

«ساعف!».

صاح أبي وهو يخرج من المكتب خلفي.

تجاهلتُه وواصلتُ حديثي مع هند: «لن أسمح لكِ بابتزازي أو بابتزاز عائلتي، اذهبي إلى الشرطة وأخبريهم بما شئتِ، قولي للإعلام ما تريدين.. لكنك لن تكوني جزءاً من حياتي أبداً».

بدت هند مصدومة للحظة كأنها لم تتوقع هذا الرد، ثم استعادت هدوءها وقالت: «أنتَ تتخذ قراراً متهوراً يا ساعف».

«ربما، لكنّه قراري».

قال أبي بنبرة توسُّل غير معهودة منه: «فكِّر مرة أخرى يا ساعف، لا تتخذ قرارات متسرعة في حالتكَ هذه».

التفتُ إليه وقلتُ: «أنا آسف يا أبي! لكنني لن

أخضع للابتزاز.. لن أعيش حياة مزيفة لمجرد أنّ شخصاً ما يهددني».

تدخّلت أمي قائلة والدموع في عينيها: «أرجوكَ يا ولدي... أنتَ الآن في بؤرة الاهتمام، العيون كلها عليكَ. بلاغ كهذا من هند للشرطة سيتسبّب في القبض عليك فوراً، وسيدعم فرضية أنكَ القاتل المتسلسل».

قلتُ بحزم:

«فليكن، سأواجه ذلك عندما يحدث.. لكنني لن أعيش كذبة».

نظرتُ إلى هند مباشرة وقلتُ: «أظن أنّ لديكِ خيارين الآن: إمّا أن تغادري بهدوء، أو سأُخرجكِ بنفسي».

تقدّم أبي بسرعة وقال بثورة مفاجئة: «هند ضيفة في منزلنا، وستُعامل باحترام. هل تفهم يا ولد؟».

تلك اللحظة أن المعركة أكبر ممّا ظننتُ. هند ليس لديها فقط تهديد ضدي، بل إنها حقاً قد نجحت في السيطرة على أبي وأمي من خلال خوفهما عليَّ.

قلتُ بصوت هادئ مليء بالحزم: «حسناً. إذا كانت هند ستبقى هنا، فأنا سأغادر».

صاحت أمي: «ساعف، لا!»

«آسف يا أمي!».

قلتُ وأنا أتّجه نحو الدرج لأُحضر حقيبتي.

«أن أموت أهون عليَّ من أن تنتصر عليّ هذه الوضيعة!».

همست هند بِغلّ: «لن تذهب بعيداً يا ساعف، ستعود.. ستعود راكعاً».

تجاهلتُها وصعدتُ الدرج. كان قراري نهائياً. ربما استطاعت هند خداع أبي وأمي، واستطاعت كذلك تهديدهما واستغلال قلقهما عليَّ، لكنها

لن تستطيع السيطرة عليَّ أبداً.

(19)

الليل يغمر المدينة، والشوارع شبه خالية إلّا من بعض السيارات العابرة. كنتُ أُمسك مقبض حقيبتي الصغيرة بقوة وأنا أنظر إلى البناية القديمة التي كنت أقطن فيها. شقتي المتواضعة، التي كنتُ قد تركتها منذ أسابيع تبدو الآن كملاذ آمن، وملجأ للهروب من الجنون الذي يحيط بي.

وقفتُ للحظة أمام المدخل متأملاً واجهة البناية المتهالكة، كم يبدو المكان مختلفاً عن فيللا أبي الفخمة! بلاط مكسور، وطلاء متقشر، وإضاءة خافتة تكاد لا تكفي لرؤية الدرج. لكن هنا على الأقل سأكون بعيداً عن هند، بعيداً عن ابتزازها وكذبها وتلاعبها بمشاعر الآخرين.

صعدتُ الدرج ببطء أجُرُّ قدميَّ جرّاً من شدة الإرهاق النفسي والجسدي. لقد كان النقاش حادّاً مع أبي وأمي، وكلماتنا الأخيرة لم تكن

لطيفة. لقد حاولا بكل قوة إقناعي بالبقاء، بمسايرة هند مؤقتاً، ببذل أي شيء من أجل سمعتي، ومن أجل ألا يتم القبض عليَّ. لكنّ كرامتي كانت أغلى عندي أو للأمانة: كانت صدمتي عظيمة لكوني أحببتُ امرأة كهذه!

غريب كيف تتبدل المواقف! أبي وأمي اللذان كانا يرفضان هند منذ البداية، ويحذراني منها، ويصفانها بالمتسلقة اجتماعياً، أصبحا الآن يريدان مني أن أتظاهر بحبها وأقبلها في حياتي! ويتّضح لي الآن أنهما كانا مُحِقَّين منذ البداية. كانت هند حقاً انتهازية متلاعبة كاذبة، كم كنتُ أعمى!

وصلتُ أخيراً إلى الطابق الثالث، حيث تقع شقتي، توقّفت للحظة أمام باب شقة آيدن المقابلة لشقتي. آيدن... كم اشتقتُ إليها فجأة! تذكرتُ خجلها المستمر، اهتمامها الخفي بي، زياراتها المتكررة للمستشفى، وكيف ضربت رأس

الكلمة من معنى، عكس هند تماماً.

شعرتُ برغبة مفاجئة في رؤيتها، في التحدث إليها. ربما يمكنني أن أعتذر عن تجاهلي لمشاعرها طوال هذه الفترة، ربما يمكننا أن نبدأ من جديد.

طرقتُ بابها بتردد، لا استجابة. طرقتُ مرة أخرى، هذه المرة بقوة أكبر.. لا حياة في الداخل.

همستُ لنفسي: «ربما تكون نائمة».

لكنّ الباب ظلَّ مغلقاً، والصمت يُخيِّم على المكان. أدرتُ مقبض الباب، فوجدتُه مقفلاً بإحكام.

التفتُ نحو شقتي وأخرجتُ المفتاح من جيبي. كان قدومي مفاجئاً، فلم يكن هناك وقت للتنظيف أو للتهوية. المكان مشبع برائحة الغبار والرطوبة، وملابسي القليلة معلّقة في خزانة صغيرة، وأوراقي ومسودات رواياتي المستقبلية غير المنتهية ما زالت على مكتبي القديم كما

تركتها.

جلستُ على حافة السرير، وأسندتُ رأسي على يدي. الصداع يكاد يفلق رأسي، والأفكار تتزاحم في عقلي كالإعصار. كم تمنيتُ لو أستطيع التحدُّث مع آيدن الآن! التنفيس عن مشاعري، سرد ما حدث، الاستماع إلى صوتها الهادئ.

قررتُ أن أسأل عنها في الصباح، ربما تكون في عملها، أو في زيارة عائلية، أو ثمة سبب آخر لغيابها في هذه الساعة المتأخرة.

استيقظتُ فزعاً على صوت طرق عنيف على الباب، الشمس قد أشرقت منذ فترة، والضوء يتسلَّل عبر النافذة. نظرتُ إلى ساعتي: العاشرة صباحاً.

نهضتُ بسرعة وفتحتُ الباب لأجد الحارس حسنين، وهو رجل كهل بشارب كثٍّ وبقامة منحنية قليلاً يقف أمامي.

«صباح الخير يا أستاذ ساعف».

قالها بابتسامة ودودة.

«سمعتُ أنكَ عُدتَ».

قلتُ وأنا أفرك عيني من آثار النوم:

«صباح النور نعم، عدتُ أمس في وقت متأخر».

«كنا جميعاً قلقين عليكَ، الأخبار تتحدث عنكَ كثيراً هذه الأيام».

تنهدتُ بإرهاق: «أعرف.. أعرف».

ثم سألتُه مباشرة: «هل رأيتَ جارتي آيدن؟ طرقتُ بابها بالأمس، ولم تفتح».

بدت على وجهه نظرة دهشة، ثم قال: «ألم تعلم؟ الآنسة آيدن رحلت منذ أيام».

شعرتُ بصدمة تجتاح كياني: «رحلت! إلى أين؟».

هزّ حسنين كتفيه: «لا أعلم بالضبط، قالت إنها ستنتقل للعيش مع خالتها في مدينة أخرى. أخلت الشقة، وسلَّمتني المفاتيح».

«ألم تترك أي عنوان أو رقم هاتف؟».

قال:

«لا، لم تترك».

ثم تذكَّر شيئاً:

«آه، لكنها تركت هذا لكَ».

مدَّ يده وأعطاني طرداً صغيراً ملفوفاً بعناية بورق أزرق بسيط، اسمي مكتوب عليه بخط يدها الأنيق. قلتُ وأنا أتناول الطرد بلهفة:

«شكراً لكَ يا عم حسنين».

ابتسم الرجل: «على الرحب والسعة يا بني، وإن احتجتَ أيّ شيء، فأنا موجود دائماً».

أغلقتُ الباب بمجرد انصرافه، وتوجّهتُ مباشرة إلى المكتب. وضعتُ الطرد أمامي، ورحتُ أتأمله للحظات. قلبي يخفق بسرعة، وأفكاري تتضارب. لماذا رحلت آيدن؟ هل كان رحيلها بسبب شيء

والشكوك حولي؟

فتحتُ الطرد ببطء محاولاً عدم تمزيق الغلاف، وجدتُ بداخله كتاباً صغيراً وظرفاً.

الكتاب كان روايتي الأولى نسخة مستعملة، تبدو وكأنها قُرأت مرات عديدة. وفي صفحة الإهداء، كان توقيعي. تذكرتُ حفل توقيع الكتاب قبل عامين، حين كنتُ متحمساً ومفعماً بالأمل. هل كانت آيدن هناك؟ هل التقت بي في ذلك اليوم؟

فتحتُ الظرف، وأخرجتُ منه ورقة مطوية بعناية، بدأتُ أقرأ:

«عزيزي ساعف:

أكتب لكَ هذه الرسالة وقلبي مليء بالمشاعر المتضاربة، فرح لأنكَ بخير وقد خرجتَ من المستشفى، وحزن لأنني سأغادر من دون أن أراكَ مرة أخرى.

أجبرتني. بعد كل ما حدث، وبعد التحقيقات والأخبار المتداولة، أصبح عمي يخشى على سمعتي من البقاء في هذه البناية أنا وأمي وحدنا. كوني شابة غير متزوجة، وجارة لمشتبه به في جرائم خطيرة، جعل الناس يتحدثون، والكلام يؤذي أكثر ممّا تظن.

لن أطيل عليكَ، فقط أردتُ أن أقول إنني أؤمن ببراءتكَ، وأنّ هذا الإيمان لن يتزعزع مهما قال الآخرون. كنتَ وما زلتَ في نظري إنساناً طيباً، كاتباً موهوباً، وصديقاً مخلصاً.

سأعود للعيش مع خالتي في السعودية، ستبدأ حياة جديدة هناك، لكنني سأحمل ذكرياتنا معي أينما ذهبت.

أعلم أنكَ تحبّ هند، وأنها الآن إلى جانبك، وأتمنى لكما حياة سعيدة معاً.

أتمنى لكَ التوفيق، وأن تجد السعادة التي تستحقها.

آيدن».

شعرتُ بغصة في حلقي، وبدمعة تتشكّل في زاوية عيني. كم كانت مخطئة! أنا لا أحب هند، بل أكاد أكرهها الآن. ولم تكن هند إلى جانبي، بل كانت تسعى إلى تدميري.

قلّبتُ الكتاب بين يدي، فشاهدتُ ملاحظة صغيرة مكتوبة بخط يدها على الصفحة الأخيرة:

«أحببتُ هذا الكتاب منذ اللحظة الأولى، لذلك استجمعتُ شجاعتي وذهبتُ إلى حفل التوقيع. كنتُ الفتاة الخجولة التي وقفت في آخر الصف، ولم تنبس ببنت شفة عندما وقّعت لها نسختها. لم تلاحظني يومها، تماماً كما لم تلاحظني طوال فترة إقامتكَ في هذه البناية، إلا بعد فوات الأوان».

حدّقت إلى الكلمات، وشعرتُ بمزيج من الحزن والندم. كم كنتُ غافلاً! كان بجانبي طوال الوقت شخص حقيقي، صادق، يهتم لأمري حقاً، وكنتُ أنا

منشغلاً بامرأة انتهازية، كاذبة، لا تهتم إلا بمصالحها.

وضعتُ الكتاب جانباً، وفتحتُ هاتفي. رسالة نصية من أمي: «ساعف، أرجوك اتصل بي، نحن قلقون عليكَ!».

تنهدتُ بإرهاق.. المشاكل تتوالى، والغيوم السوداء تتجمّع، لكنّ الأكثر إيلاماً الآن هو رحيل آيدن. رحيل شخص كان يمكن أن يكون جزءاً مهماً من حياتي، لو كنتُ أكثر انتباهاً، وأقل غفلة.

نهضتُ ببطء، واتجهتُ نحو النافذة. الشارع يبدو عادياً تماماً في الخارج: سيارات تمر، أناس يتسوقون، أطفال يلعبون. حياة طبيعية، بعيدة كل البعد عن الجحيم الذي أحترق فيه.

ابتعدتُ عن النافذة، وسحبتُ الستارة.

جلستُ على حافة السرير أحدّقُ في الفراغ، لقد خسرتُ كل شيء تقريباً: شغف آيدن التي غادرت، وكسبتُ هند التي أصبحت عدوّتي، وثقة أبي

وأمي المهزوزة، وسمعتي المشوهة من قبل الإعلام والشائعات. وإلى جانب كل ذلك، ما زالت قضية القتل المتسلسل مُعلّقة، والقاتل الحقيقي طليقاً.

لا بدّ لي من فعل شيء، لا يمكنني الجلوس هنا في انتظار مصيري. يجب أن أبحث عن الحقيقة بنفسي، أن أكشف هوية القاتل الحقيقي، وأُثبت براءتي.

قررتُ أن أنام قليلاً، ثم أفكر بهدوء. في الصباح، سأذهب إلى الشرطة لمقابلة الرائد هاشم، وسأرى ماذا يريد. ثم... ثم سأفكر في الخطوة التالية.

استلقيتُ على السرير، وأغمضتُ عينيّ مستسلماً إلى إرهاق جسدي وعقلي. وقبل أن أغرق في النوم، كانت الصورة الأخيرة في ذهني هي وجه آيدن وابتسامتها الخجولة وكلماتها: «*أتمنى لكَ التوفيق، وأن تجد السعادة*

التي تستحقها».

(20)

استيقظتُ متأخراً، كان الصداع ما يزال يستبد بي، والأفكار المتضاربة في رأسي لم تخفّ حدّتها. نظرتُ إلى ساعة الحائط: الثانية عشرة ظهراً، لقد نمتُ أكثر ممّا كنتُ أنوي.

نهضتُ بتثاقل.

توجهتُ نحو المطبخ الصغير، وأعددتُ لنفسي فنجان قهوة سوداء ومُرّة كمرارة أيّامي الحالية، كنتُ بحاجة ماسة إلى الكافيين لتنشيط عقلي المرهق. وبينما كنتُ أنتظر غليان الماء، عادت عيناي إلى الطرد الذي تركته آيدن.. الكتاب والرسالة ما زالا على المكتب، لكن كان هناك شيء آخر لم أنتبه إليه البارحة.

عدتُ إلى المكتب وحملتُ الطرد.. نعم، كان هناك شيء آخر في قاعه.. شيء ثقيل نسبياً، ملفوف بورق آخر.

الغامض. فتحته ببطء، ليظهر أمامي كشكول سميك، مجلد بغلاف جلدي بنيّ داكن، محاط برباط مطاطي لإغلاقه.

تأملته للحظات، وإحساس غريب يسري في جسدي. لم أتذكّر امتلاكي لكشكول كهذا من قبل. لكن حين فتحته، تجمّدت أنفاسي... هذا خَطِّي!

الصفحات مليئة بكتابتي.. نعم، لكن متى كتبتْ كل هذا؟ شعرت بدوار مفاجئ. هل حدث هذا في الفترة التي فقدت ذاكرتي فيها؟ هل كتبتُ هذا خلال الأسبوع المفقود من حياتي؟

عدتُ إلى رسالة آيدن ، لعلها تحوي إجابة. بالفعل، كان هناك جزء آخر في الرسالة لم أنتبه إليه:

«بخصوص الكشكول المُرفَق، لم أرغب في ذكره في البداية، لكن ربما يكون مهماً بالنسبة لكَ. بعد اختفائكَ بخمسة أيام، طرقتَ بابي في

منتصف الليل. كنتَ تبدو مرهقاً، شاحب الوجه، وعيناك محمرتان كأنكَ لم تنم لأيام.

كان معكَ هذا الكشكول، وقد طلبتَ مني بإلحاح غريب أن أحتفظ به كأمانة. قُلتَ إنه أمر بالغ الأهمية، وحذَّرتني بشدة من فتحه. كما طلبتَ مني ألّا أعيده إليكَ فور ظهوركَ، بل أن أنتظر خمسة أيام على الأقل قبل تسليمه.

كنتَ في حالة غريبة، كما لو أنكَ خائف من شيء ما. وبعد أن سلّمتَني الكشكول غادرتَ مسرعاً، ولم أركَ بعدها إلا عندما علمتُ بوجودكَ في المستشفى.

صارعتُ فضولي كثيراً، إذ خمّنتُ أنها ربما كانت مسودة روايتكَ الجديدة، وكنتُ متشوّقة لقراءتها، لكنّني احترمتُ رغبتكَ واحتفظتُ به مغلقاً.

ذهبتُ لزيارتكَ في المستشفى، لكن حين وصلتُ رأيتُكَ محاطاً بعائلتك، وبجانبك تلك المرأة،

هند، تمسك بيدكَ بحنان مبالغ فيه. قررتُ الانسحاب بهدوء. لم يكن هناك مكان لي في تلك الصورة.

أعترف أن رؤيتكَ معها حطّمت قلبي! أنا... أحبكَ يا ساعف. ربما يبدو هذا الاعتراف سخيفاً الآن، وربما أنا في غاية الحماقة لأخبركَ به بعد رحيلي، لكنّني أردتُ أن تعرف.. أردتُ أن أكون صادقة معكَ ولو مرة واحدة.

والآن، ها أنا أضع هذا الكشكول بين يديكَ كما وعدت، لا أدري ماذا يحوي، لكنني آمل أن يساعدكَ في إيجاد ما تبحث عنه.

آيدن».

جلستُ مصدوماً، والكلمات تدور في رأسي. هل زرتُ آيدن خلال فترة اختفائي؟ هل سلَّمتُها الكشكول وطلبتُ منها الاحتفاظ به؟ والأهمّ من ذلك... هل كانت تحبني؟

لكن الآن، كان أمامي هذا الكشكول الغامض.

ما الذي كتبتُه فيه؟ ولماذا طلبتُ من آيدن ألاّ تُسلِّمه لي فور ظهوري؟

فتحتُ الكشكول، وبدأتُ أُقلّب صفحاته. الكتابة كانت بخطي، لكنها خُطَّتْ على عجل، بدت غير منتظمة، كأنني كنتُ أكتب تحت ضغط شديد.

الصفحة الأولى تحمل تاريخاً يعود إلى اليوم الثاني من اختفائي، الكلمات الأولى كانت صادمة:

«أكتب هذا وأنا غير متأكد إن كنتُ سأعيش حتى أُنهيه، ما اكتشفتُه يتجاوز كل ما تخيلتُه!».

توقفتُ عن القراءة وقلبي يخفق بجنون، هذه ليست مسودة رواية.. هذه مذكرات... مذكرات حقيقية، كتبتُها خلال الأسبوع المفقود!

واصلتُ القراءة مدفوعاً بفضول محموم، الصفحات تتحدث عن تحركاتي بعد الشجار مع راشد في المستودع. يبدو أنني بعد الإصابة، ذهبتُ بالفعل إلى عيادة الدكتور حبيب، الذي عالج جرحي. لكن بعدها بدأتُ أرى رؤى غريبة،

صوراً ووميضات لا تنتمي إلى ذاكرتي.

يبدو أنني خلال ذلك الأسبوع، بدأتُ أتتبّع خيوطاً غامضة، أسير على درب من الظنون والشكوك. بدأتُ أشك في الدكتور حبيب نفسه، شككتُ في راشد، وحتى في بعض رجال الشرطة.

ثم وصلتُ إلى صفحة جعلتني أتجمد في مكاني، إذ إنني كتبت فيها: «*اليوم وجدتُ المنزل، المنزل الذي يظهر في أحلامي مراراً. إنه منزل قديم متهالك، يحوي في داخله سرّاً مروّعاً.. منزل يضم نحت أرضيته رفات ثلاث وعشرين فتاة*».

ثم تلتها صفحات من التفاصيل المروعة: أسماء الضحايا، تواريخ اختفائهن، ظروف قتلهن. كل ذلك مُدوَّن بتفاصيل دقيقة، كأنني كنتُ هناك، أشهد كل جريمة!

كيف عرفتُ كل هذا؟ هل «السجلات الأكاشية» حقيقة بالفعل، أم أن هناك تفسيراً أكثر رعباً؟

واصلتُ القراءة والعرق البارد يتصبَّب من جبيني،

ثم وصلت إلى صفحة مُزِّقَ جزء منها، كُتِب في أعلاها:

«لقد اكتشفتُ هويته، القاتل هو...»

والجزء المتبقي ممزّق! لا بد أني مزقتُ الاسم من باب الحيطة، وربما هذا هو السبب الذي يجعلني أطلب من آيدن أن تنتظر خمسة أيام، حتى أستوعب ما يدور حولي. شعرتُ بالإحباط يعتصر قلبي. لكنّني واصلتُ القراءة في الصفحات التالية، على أمل العثور على اسم القاتل.. لكن بلا جدوى!

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

(21)

جلستُ في سيارة الأجرة، وقلبي يخفق بسرعة جنونية. وضعتُ الكشكول في حقيبتي، وكأنّه قنبلة موقوتة قد تنفجر في أي لحظة، عقلي يعجّ بالأفكار المتضاربة.

توقّفت سيارة الأجرة أمام عيادة الدكتور حبيب، المبنى القديم بدا موحشاً في ضوء النهار الخافت، لافتة العيادة ما زالت مرفوعة رغم أن الشرطة أغلقت المكان، بعد حادثة القبض عليه وهو يحاول استجواب راشد العمري. سألني السائق:

«أتريدني أن أنتظركَ؟»

«لا شكراً، سأتدبّر أمري».

وقفتُ أمام باب العيادة متردداً، أكان من الحماقة المجيء إلى هنا؟ الدكتور حبيب قيد التحقيق، والعيادة مغلقة رسمياً.

لاحظتُ رجلاً طفولي الملامح يخرج من باب جانبي للعيادة، كان يرتدي معطفاً أبيض طبياً، ويحمل حقيبة صغيرة. عرفتُه على الفور: عوّاد، مساعد الدكتور حبيب.

تفاجأ حين رآني، لكنّه استعاد رباطة جأشه بسرعة، وقال: «أستاذ ساعف! لم أتوقّع رؤيتكَ هنا».

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

«ظننتُ أنّ العيادة مغلقة».

«نعم، هي مغلقة رسمياً، لكنّني أحياناً آتي لترتيب بعض الأوراق والملفات. وهناك بعض المرضى المزمنين الذين يحتاجون أدويتهم، ربما لا تعرف أني ممرِّض وصيدلاني في ذات الوقت».

وأطلق ضحكة قصيرة خجولة، فابتسمت.

ترددتُ للحظة، ثم قلتُ: «أحتاج إلى رؤية الدكتور حبيب، هل يمكنكَ مساعدتي في ذلك؟»

نظر حوله بتوتر، ثم قال: «هذا... صعب. الدكتور

مصلحتكَ مقابلته الآن، وحولكَ من الشكوك ما حولكَ».

«أعلم، لكن هذا أمر بالغ الأهمية، يجب أن أتحدّث معه».

تردَّد عوّاد للحظات، ثم قال: «حسناً. يمكنني أن أجمعكَ به، لكن ليس هنا.. بل في بيته».

دعاني إلى الدخول إلى العيادة عبر الباب الجانبي. كان المكان مظلماً كئيباً صامتاً، وما زاد العيادة كآبةً الممرُ الأبيض ذو النيون الباهت. أثاثها معظمه مغطى بأقمشة بيضاء، وثمة غبار خفيف يعلو الأسطح. كانت هناك شرائط صفراء تحذيرية وضعها عناصر الشرطة على بعض الأبواب.

قال عوّاد وهو يتحرّك بخفة بين الأثاث: «انتظر هنا لحظة، سأُحضر بعض الملفات، ثم سآخذكَ إلى منزل الدكتور حبيب».

تركني في غرفة الانتظار الرئيسية، ودخل إلى

2575565132

مكتب خلفي. يا لَها من فرصة ذهبية للتجوُّل قليلاً في المكان! نهضت بهدوء وبدأت أستكشف الغرف المجاورة، أبحث عن أي دليل يمكن أن يساعدني في فهم ما يحدث.

بعد بحث طويل جلستُ مرهقاً من دون العثور على أي شيء، كان عليَّ أن أُرتّب الأحداث في ذهني. حين قابلتُ حبيب لأول مرة ولمستُ يده في لحظة التجلّي المنبثقة من السجلات الأكاشية، رأيتُ أبرز ما يؤرقه ويؤلمه وهو حادثة زوجته. وحين لمستُ نعيم رأيتُ أكثر سرٍّ يحتفظ به ويؤرقه أيضاً خوفاً من كشفه، وهو زواجه من أخرى. لكن ما هو الشيء الذي جعلني أتوجّه إلى المنزل المهجور، وأكتشف ما فيه؟ حتى تلك اللحظة الأمر متعلّق بلمسي لأشخاص، وأنا لم ألمس سوى حبيب ونعيم فقط. لا، بل هناك شخص آخر!

يا لي من أحمق! الوحش الذي يطاردني في

شخص لمسته أثناء نوبة التجلي، وانفتاح السجلات الأكاشية، وهو يعالج جروحي وأنا تحت يديه. الشخص الذي كان موجوداً طوال الوقت أمام عينيّ، لكنّه متخفٍّ وراء ملامحه الطفولية.. عوّاد!

(22)

سمعتُ صوت خطوات قادمة من الممر الخلفي للعيادة، لحظات من التوتر، وإذا بشخص يظهر من الظلال... الدكتور حبيب!

صرختُ:« دكتور حبيب، عرفتُ من هو القاتل المتسلسل.. إنه عوّاد».

بدت الدهشة على وجه حبيب، ثم قال بشفقة: «ماذا أصابكَ يا ساعف؟ هل جُننتَ؟».

وفجأة ظهر عواد وهو يقرأ بعض الأوراق، بادره حبيب:

«عوّاد، لدينا مشكلة. ساعف يعتقد أنكَ القاتل المتسلسل!».

نظر إليَّ عواد باهتمام، ثم قال بهدوء وهو يبتسم: «أحقاً؟!».

نظر الدكتور حبيب إليَّ وقال مشفقاً:«عوّاد لا يستطيع حتى قتل حشرة!».

ضحك عوّاد ضحكة خفيفة، ثم قال: «هذا مثير للاهتمام فعلاً».

بادله حبيب ضحكة قصيرة هو الآخر.

ثم فجأة، حدث شيء مذهل. تبدّلت ملامح عوّاد تماماً. اختفت الابتسامة الهادئة، وحلّ محلها تعبير بارد، قاس. عيناه الداكنتان أصبحتا أكثر قتامة، وفمه انكمش في خط رفيع.

قال بصوت مختلف تماماً، أجش وأعمق: «في الواقع، الشاب ليس مخطئاً تماماً يا دكتور حبيب».

توقّف الدكتور حبيب عن الضحك، ونظر إلى عوّاد بارتباك: «ماذا... ماذا تعني؟».

أخرج عواد من جيبه مسدساً صغيراً، وصوّبه نحو الدكتور حبيب: «أعني أنّه محقّ. أنا بالفعل القاتل المتسلسل».

شهق الدكتور حبيب بصدمة، وتراجع إلى الخلف

«كانت لديَّ خطة بشأنكما، لكن الآن سيتعين عليَّ تغيير الخطة قليلاً».

الدكتور حبيب حاول التحرك ببطء نحو الباب، لكن عواد أطلق رصاصة بالقرب من قدم الطبيب، مجبراً إيّاه على التوقّف.

«لا تتحرّكْ يا دكتور. لم ننتهِ بعد».

وقفتُ مشلولاً من الخوف، محاولاً استيعاب ما يحدث. كان عواد هو القاتل بالفعل! لم أكن مخطئاً في استنتاجي!

سأله الدكتور حبيب بصوت مرتجف: «لماذا يا عوّاد؟ لماذا قتلتَ كل أولئك الفتيات؟»

«من أجل الشعور بالقوة، الشعور بالسيطرة، رؤية الخوف في أعينهن قبل أن يخبو النور فيها. إنها... متعة لا يمكن وصفها!».

شعرتُ بالغثيان يجتاح معدتي، بينما واصل عوّاد حديثه: «لكن كان هناك جانب عملي أيضاً. معظم

الفتيات كن يعرفنني... يثقن بي... باعتباري مساعد طبيب محترم. كم كان من السهل استدراجهن... خداعهن...».

قال حبيب باشمئزاز:

«أنتَ مريض».

ضحك عوّاد: «مريض؟ ربما. لكنّني أيضاً عبقري. عملتُ معكَ لسنوات، ولم تشكّ بي يوماً. حتى عندما بدأت الفتيات يختفين واحدة تلو الأخرى. كنتَ مشغولاً جداً بمشاكلكَ الخاصة، بخيالاتكَ عن انتقامكَ من راشد العمري».

ثم التفت نحوي: «وأنتَ يا كاتبنا الموهوب، يا مَن يرى ما لا يراه الآخرون... أنتَ كنتَ الخطر الجديد عليَّ. لقد اندهشتُ بشدة حين تكلَّمتَ عن حادثة حبيب، وتساءلتُ إن كانت لديكَ رؤيا بخصوصي. لقد علمتُ بطرقي الخاصة أنكَ زُرتَ المنزل المهجور، لذا كان عليَّ التخلّص منكَ فوراً ومن دون إبطاء!».

قلتُ بمقت:

«أنتَ من كنتَ في السيارة السوداء، وحاولت دهسي وأمي».

ضحك:

«كنتُ أقصدكَ أنتَ فحسب، لكن لا بأس لو شحنتُكما إلى الآخرة في رحلة سريعة وبتذكرة واحدة».

تمتمت:

«أيها الحقير!».

قال بنبرة أكثر جدية: «لكنّ المشكلة حدثت عندما بدأتَ تقترب من الحقيقة، لم أكن أتوقّع أن تكون بهذا الذكاء، أن تربط الخيوط بهذه السرعة».

ثم أخرج من جيبه علبة صغيرة، تشبه علبة الرذاذ، وقال: «هذا عقار خاص من صنعي، يحتوي على مواد مُخدِّرة قوية تُسبِّب فقدانَ الوعي

السريع، ثم فقدان الذاكرة المؤقت.. ستستيقظان بعد ساعات».

قبل أن نتمكّن من ردّ الفعل، ضغطَ على رأس العلبة وانبعث منها ضباب خفيف ملأ الغرفة. شعرتُ على الفور بدوارٍ شديد وبضيق في التنفس. حاولتُ التحرُّك نحو الباب، لكنّ ساقيّ خانتاني، وسقطتُ على ركبتي.

الدكتور حبيب كان في حال أسوأ، إذ إنه سقط أرضاً مباشرة، وأخذ يلهث بصعوبة.

رأيتُ عواد يضع قناعاً واقياً، ويتحرّك بيننا بهدوء. انحنى فوقي، وقال: «لا تقلقْ يا ساعف، لن أقتلكَ الآن، أنتَ ما زلتَ مفيداً لخطتي. عندما تستيقظ، سأجعلكَ تخوض غمار تجربة لطيفة».

كانت الرؤية تتضبَّب أمامي، والأصوات تختفي تدريجياً. حاولتُ بكل قوتي البقاء مستيقظاً، لكنّ الظلام بدأ يغزو وعيي...

آخر ما رأيتُه قبل أن أفقد وعيي تماماً كان وجه

عوّاد، يبتسم بانتصار.

(23)

ألم حادّ في رأسي، كان ذلك أول ما شعرتُ به حين بدأ وعيي يعود إليَّ ببطء. حاولتُ تحريك يدي لأتحسس موضع الألم، لكنّني لم أستطع. وعيي ما زال مضطرباً، لا يقف على أرض ثابتة، وجفناي ثقيلان كالرصاص كما هي العادة، لكنّ الإحساس بشيء ما يُقيّد معصمي كان واضحاً.

فتحتُ عينيَّ ببطء، وكانت الصور أمامي ضبابية في البداية، ثم بدأت تتّضح تدريجياً. كنتُ في قاعة كبيرة، ذات جدران من (الطابوق) القديم المتآكل، وسقف عالٍ تتدلّى منه أنابيب صدئة وبقايا مصابيح صناعية مُعطّلة.

هل هو مصنع قديم؟ مستودع مهجور؟ لم أكن متأكداً. كان المكان بارداً ورطباً، ورائحة العفن والصدأ تملأ الهواء.

حاولتُ تحريك يدي مرة أخرى، فتأكّدتُ أنني

بالأصفاد المعدنية إلى ذراعَي الكرسي، وكاحلاي مربوطان بساقيّ الكرسي بحبال سميكة.

أدرتُ رأسي ببطء متحمِّلاً الألم، لأستكشفَ المكان أكثر، وما رأيتُه جعل قلبي يتوقّف للحظة.

أمامي، على مسافة بضعة أمتار، كان هناك صفّ من تسعة كراسٍ، مرتبة على شكل نصف دائرة. وعلى كل كرسي شخص مقيّد مثلي تماماً، لكنّ رؤوسهم كانت مغطاة بأكياس قماشية سوداء تُخفي ملامحهم. كانوا جميعاً فاقدي الوعي، رؤوسهم متدلّية، وأجسادهم رخوة.

تسعة أشخاصٍ مقيَّدين، مجهولةٌ هويتهم، معصوبةٌ أعينهم، في هذا المكان المقفر، وأنا العاشر، الوحيد الذي يمكنه رؤية كل هذا.

«هل استيقظتَ؟ عظيم!».

الصوت جاء من خلفي.. صوت عرفته على الفور: عوّاد!. دار حولي ببطء، حتى وقف أمامي مباشرة مبتسماً ابتسامته الباردة المألوفة.

سألتُه بصوتٍ خشنٍ وجاف:

«أين نحن؟».

قال عوّاد بهدوء، كأنه يتحدّث عن الطقس:

«هذا مصنع إطارات قديم، مهجور منذ عقود. مكان هادئ معزول، مثالي لتنفيذ ما أخطط له».

نظرتُ إلى الأشخاص المقيَّدين، وسألتُ: «من هؤلاء؟»

اتسعت ابتسامة عوّاد، وقال: «أصدقاؤكَ وعائلتكَ بالطبع.. من ظننتهم؟».

شعرتُ برجفة تسري في جسدي كله: عائلتي! أصدقائي!.. لا، لا يمكن أن يكون هذا حقيقياً!

قلتُ بحدة:

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

«أنتَ تكذب».

ضحك عوّاد ضحكة قصيرة، وقال: «لنرَ».

ثمّ توجّه نحو أول كرسي في الصف، وقال:

مُسلّياً».

وقف خلف أول كرسي، وأزالَ الكيس الأسود عن رأس الشخص المقيَّد عليه. فتاة مراهقة، ربما في السادسة عشرة، شعرها أسود طويل ووجهها شاحب من الخوف، معصوبة العينين وفمها مكمّم. كانت فاقدة الوعي، لكنني استطعتُ التعرف عليها على الفور. قال عوّاد:

«نجوى ابنة نعيم المراهقة، فتاة جميلة.. أليس كذلك؟ وطيبة جداً... وثقَتْ بي حين قلتُ لها إني صديق والدها، وأنه طلب مقابلتها».

شعرتُ بالغثيان يجتاح معدتي، هل بلغ عواد هذا الحدّ من الحقارة والجنون؟

انتقل عواد إلى الكرسي الثاني، وكشف عن الرأس. هذه المرة، كان الدكتور حبيب، وجهه متورِّم وعليه كدمات، ومن الواضح أنه تعرّض للضرب قبل أن يفقد وعيه.

«الدكتور حبيب، معلمي العزيز».

قال عوّاد بسخرية.

«الذي لم يلاحظ أبداً الوحش، الذي كان يعمل تحت إمرته طوال تلك السنوات».

الكرسي الثالث حمل مفاجأة صادمة: فتاة شابة، في العشرينات من عمرها، تشبه الدكتور حبيب بشكل ملحوظ.

«فدوى، ابنة الدكتور حبيب».

اتسعت عيناي بذهول، الحقير لن يتوانى عن ارتكاب كل الموبقات من أجل تغذية هوسه بالسيطرة. انتقل عواد إلى الكرسي الرابع، وأزاح الكيس عن رأس رجلٍ في الستينات من عمره، ذي شعر رمادي وملامح قوية تشبه ملامحي.. واقشعرَّ بدني!

«والدك سعيد.. رجل قوي، أليس كذلك؟ كان من الصعب إحضاره إلى هنا، لكن لكل شخص نقطة ضعف، وأنتَ نقطة ضعفه على ما يبدو!».

وجهها، شعرتُ بألم حارق في قلبي، وصرختُ: «أمي!».

قال عوّاد بنبرة حالمة:

«فريدة، الأم المحبة. أكثر ما يُميِّزها هو إيمانها المطلق بابنها. ما تزال تُصرّ على أنكَ بريء، رغم كل الأدلة ضدكَ».

الكرسي السادس كان يعتليه أخي سامر، الذي بدا أنه حاول المقاومة، فشفته مشقوقة، وهناك كدمة زرقاء فوق عينه اليمنى.

«سامر، الأخ الأصغر المتمرد. الذي يبدو سطحياً في تعامله، لكنه يُكنّ لكَ محبة عميقة، أكثر ممّا تظن».

الكرسي السابع: هند، كان وجهها خالياً من المكياج الذي اعتادت وضعه، ومن الواضح أنها بكت كثيراً، فعيناها منتفختان رغم إغماضهما.

«غريب أمر حبيبتكَ هذه! كانت تستغلكَ، ثم

باسمكَ، تطلب نجدتكَ».

الكرسي الثامن حمل الصدمة الأكبر بالنسبة لي. آيدن! التي ظننتُ أنها غادرت المدينة، سافرت مع عمها.

قل عواد بخبث:

«آيدن جارتكَ الخجولة، والتي تحبُّكَ سرّاً».

ثم انتقل إلى الكرسي التاسع والأخير، وأزاح الكيس عن رأس راشد العمري، الذي كان وجهه مليئاً بالكدمات، وثمة جرح غائر يمتد من جبهته إلى خده.

«وأخيراً، راشد العمري. الرجل الذي قتل زوجة الدكتور حبيب بتهوره، ثم هرب من العقاب بفضل نفوذه وماله. الرجل الذي كرهه الدكتور حبيب بشدة، وهو يستحق هذه الكراهية بكل تأكيد».

استدار عواد نحوي، ووقف أمامي مباشرة، قائلاً: «إذن، هؤلاء هم جمهورنا اليوم. تسعة

قلتُ بصوت متحشرج من شدة الغضب والخوف:

«ماذا تريد منهم؟ هم لا علاقة لهم بكل هذا!».

قال عواد بابتسامة واسعة:

«حقاً! بل على العكس.. لهم علاقة وثيقة جداً، لأنهم سيكونون جزءاً من لعبتنا الصغيرة».

صرختُ باستنكار:

«لعبة؟».

هتف بحماس غريب:

«نعم، لعبة.. لعبة بسيطة، قواعدها سهلة للغاية. أنتَ ستختار خمسة من هؤلاء التسعة، ليعيشوا. والباقون... سيموتون».

شعرتُ بالدم يتجمّد في عروقي، هذا مستحيل! لا يمكن أن يطلب مني هذا!

قلتُ في ذهول:

«أنتَ مجنون.. مجنون.. مجنون!».

قال عوّاد بلامبالاة:

«ربما! لكن هذه هي قواعد اللعبة. إما أن تختار خمسة ليعيشوا، أو سأقتلهم جميعاً».

صرختْ بغضب:

«لن ألعب لعبتكَ القذرة هذه!».

قال عواد، وهو يُخرج مسدساً من جيبه:

«حسناً.. في هذه الحالة، سأقتلهم جميعاً الآن، واحداً تلو الآخر، أمام عينيكَ».

ثم توجّه نحو نجوى، ووضع فوهة المسدس على رأسها، وقال: «سنبدأ بها. فتاة بريئة، لم تؤذِ أحداً. تريد أن تصبح طبيبة فى المستقبل، تنقذ الأرواح. كل هذا سينتهي برصاصة واحدة».

صرختْ:

«لا! توقّف! سألعب لعبتكَ أيها الوضيع».

ابتسم عواد بانتصار، وأبعد المسدس عن رأس

عاد ووقف أمامي، وقال: «القواعد بسيطة. اخترْ خمسة ليعيشوا.. أعطني أسماءهم، وأسباب اختيارك».

نظرتُ إلى الوجوه التسعة، وشعرتُ بثقل مروّع جاثم على صدري. كيف يمكنني الاختيار؟ كيف أقرِّر من يعيش ومن يموت؟

سألته محاولاً كسب الوقت، والبحث عن مخرج:

«لماذا تفعل هذا؟».

«لقد أجبتُ من قبل على هذا السؤال السخيف، لكن لا بأس من الإجابة مرة أخرى مع بعض التوضيح. للأسباب نفسها التي دفعتني إلى قتل ثلاث وعشرين فتاة، لأنني أستطيع.. لأنني أستمتع برؤية الناس في أضعف لحظاتهم، في أكثر قراراتهم صعوبة. لأنني أحبّ أن أرى الخوف والألم والذنب في أعين من يعيشون».

ثم اقترب مني أكثر، وقال: «ولأنكَ أنتَ بالذات يا ساعف، كُتب عليكَ أن تكون بطلَ مسرحيتي

النهائية. الكاتب المرهف، الذي يتلاعب بمصائر شخصياته في رواياته، سيُضطر الآن إلى تقرير مصائر حقيقية لأشخاص حقيقيين يحبهم».

«أنتَ لن تُفلت من العقاب».

ضحك عواد بسخرية: «بل سأُفلت كما أفلتُ من قَبل عشرات المرات. وبعد الليلة، ستكون أنتَ المجرم.. القاتل المتسلسل الذي أُصيب بنوبة جنون وقتل أفراداً من عائلته وأصدقائه. وسأكون أنا الضحية الأخيرة على قائمتكَ، بعد أن اكتشفتْ أمركَ وحاولتُ إيقافكَ».

استدار نحو طاولة صغيرة في زاوية القاعة، وعاد يحمل حقنة كبيرة مليئة بسائل شفاف.

قال:

«هل ترى هذه؟ إنها حقنة من عقار خاص، يسبّب توقّف القلب خلال دقائق. سيبدون كأنهم ماتوا بسكتة قلبية طبيعية، وسأستخدمها مع الأربعة الذين تُقرِّر موتهم، لكن سأترك المحقن

وفيه بعض البقايا من العقار، وعندما سيتم تحليله سيجدونه مترسباً في الجثث السابقة القديمة، وبالتالي سيتأكدون من أنكَ هو، وسأبدأ في مكان جديد بطريقة قتل جديدة، على نظافة كما يقولون».

ثم وضع الحقنة جانباً، وأضاف: «لكن قبل ذلك سأوقظهم جميعاً، أريدهم أن يعرفوا أنكَ مَن قرَّر موتهم، أريدهم أن ينظروا في عينيكَ وهم يدركون أنكَ حكمت عليهم بالإعدام».

قلتُ بيأس:

«لا يمكنني الاختيار.. لا يمكنني تقرير مَن يعيش ومَن يموت».

قال عواد:

«بالطبع يمكنكَ، نحن نفعل ذلك كل يوم. نختار من نساعد ومَن نتجاهل، مَن نحبّ ومن نكره، مَن نتذكر ومَن ننسى. الفرق الوحيد هو أنّ قراراتكَ اليوم ستكون مباشرة وواضحة، بدلاً من أن تكون

[23] - صفحة 245 / 288

مستترة ومتخفية».

قلتُ متضرعاً:

«أعطني وقتاً للتفكير».

«بالطبع، لديكَ خمس دقائق».

ونظر إلى ساعته.. الوغد!

نظرتُ إلى الوجوه التسعة مرة أخرى، وعقلي يتخبط. نجوى فتاة بريئة، ليس لها ذنب في أي شيء. الدكتور حبيب - برغم أخطائه - كان ضحية أيضاً. فدوى ابنته التي لا أعرفها حتى. أبي وأمي العمود الفقري لحياتي، رغم كل خلافاتنا. سامر أخي الذي ثبتَ أنه يحبّني أكثر ممّا ظننتُ. هند التي رغم خداعها وانتهازيتها، لا تستحق الموت بهذه الطريقة. آيدن التي أحبتني في صمت، ولم أنتبه إلى مشاعرها إلا بعد فوات الأوان. وراشد الذي رغم أخطائه الكبيرة، كان ضحية لمؤامرة أكبر منه.

قال عوّاد، مقاطعاً أفكاري:

«الوقت ينفد يا ساعف.. ثلاث دقائق متبقية».

ثم ابتسم ابتسامة شريرة، وأضاف: «أتعرف؟ لنجعل الأمر أكثر إثارة، سأوقظهم جميعاً الآن، ودعهم يسمعون قرارك بأنفسهم».

أخرج من جيبه زجاجة صغيرة، وبدأ برش محتواها أمام أنوفهم واحداً تلو الآخر. كان من الواضح أنها مادة مُنبِّهة، لأنهم بدؤوا يتحركون ويئنّون تدريجياً.

نجوى كانت أول من استعاد وعيه بالكامل، فتحت عينيها ونظرت حولها بذعر، ثم بدأت تبكي بصمت خلف الكمامة.

ثم استيقظ الدكتور حبيب وأبي وأمي وباقي الضحايا واحداً تلو الآخر. كلهم كانوا مرعوبين، يحاولون الصراخ من خلف كماماتهم، ويتلوون في قيودهم. قال عواد بصوت عالٍ:

«أهلاً بكم أيها الضيوف الكرام، أنا آسف للظروف السيئة التي جعلتكم تُضطرون إلى أن تكونوا هنا، لكنني أحتاج إليكم في لعبة صغيرة. ساعف - صديقنا العزيز هنا - سيختار خمسة منكم ليعيشوا. أما الباقون، فمصيرهم الموت».

عيون الجميع اتجهت نحوي.. عيون مليئة بالخوف والتوسل والرجاء. لم أستطع تحمُّل النظر إليهم. قلتُ لعواد:

«هذا ليس عدلاً، أنتَ تجبرني على الاختيار، ثم تجعلهم يعتقدون أنّني أنا من أراد هذا».

ضحك عواد: «الحياة ليست عادلة يا ساعف، وأنتَ تعرف ذلك أفضل من أي شخص آخر».

ثم نظر إلى ساعته مرة أخرى، وقال: «دقيقة واحدة متبقية. إذا لم تختر، سأقتلهم جميعاً».

ما الذي يمكنني فعله؟ كيف أختار؟ وفجأة، خطرت لي فكرة.. فكرة يائسة وخطيرة، لكنها الفرصة الوحيدة.

نظرتُ إلى عواد، وقلتُ بهدوء: «حسناً.. سأختار».

ابتسم ببعض الدهشة الممزوجة بالحيرة: «أبهذه السرعة؟ أنتَ تُدهشني!، حسناً مَن هم الخمسة المحظوظون؟».

أخذتُ نفساً عميقاً، ثم قلتُ: «نجوى وفدوى وأمي وآيدن وهند».

رفع عواد حاجبيه: «أتختار النساء فقط؟ هذا مثير للاهتمام.. لماذا؟».

«لأنهن أقل مسؤولية عمّا حدث. نجوى وفدوى بريئتان تماماً، أمي كانت دائماً إلى جانبي. آيدن كانت الوحيدة التي آمنت بي حقاً. وهند رغم كل شيء لا تستحق الموت».

ضحك عواد: «وماذا عن الرجال؟ عن والدك.. عن أخيك؟!».

صمتُّ للحظة، ثم قلتُ: «أبي قوي وسيتفهم

أمي مثلاً. سامر شاب، لكنه سيعلم أنني أردتُ إنقاذ من هم أضعف. الدكتور حبيب وراشد... لديهما ذنوبهما الخاصة».

هزّ عواد رأسه بإعجاب مصطنع: «منطق مثير للإعجاب، ولكن هل تظن أنّ الدكتور حبيب وراشد يستحقان الموت أكثر من هند، التي خدعتكَ وابتزّتكَ؟».

نظرتُ إلى هند التي كانت تبكي بصمت، ثم قلتُ: «لا أحد منهم يستحق الموت. لكنكَ أجبرتَني على الاختيار».

ابتسم عواد ابتسامة غريبة: «حسناً جداً، لكن لديّ تعديل صغير على اختيارك».

سألتُ بحذر:

« تعديل؟» .

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

«نعم. سأنقذ خمسة كما وعدتُ، لكنهم ليسوا الخمسة الذين اخترتَهم».

اقترب من الكراسي، وقال: «سأنقذ نجوى، لأنها بالفعل بريئة. وسأنقذ آيدن، لأن قصة حبها لكَ من طرف واحد مؤثرة حقاً. وسأنقذ أخاكَ سامر، لأنه شاب ولديه مستقبل. وسأنقذ راشد، لأنه ليس سيئاً كما تظن».

ثم توقّف، ونظر إليَّ بعينين باردتين، وأضاف: «والخامس... سيكون قراري الخاص».

«هذا ليس عدلاً! ليس هذا ما اتفقنا عليه!»

«الحياة ليست عادلة، ألم نتّفق على ذلك من قبل؟».

ثم توجّه نحو المحقن وأمسكه بيده، وعاد ليقف أمامنا جميعاً. قال بنبرة رسمية:

«والآن، حان وقت تنفيذ الحكم. الخمسة الذين قررت إنقاذهم سيعيشون. والباقون سيموتون، واحداً تلو الآخر، أمام عينيكَ يا ساعف».

صرختُ محاولاً تحرير نفسي من القيود بيأس:

«لا يمكنكَ فعل ذلك!»

«بالطبع يمكنني، وسأفعل».

ثم اقترب من الدكتور حبيب، وقال: «سنبدأ بكَ يا دكتور.. معلمي القديم».

@N_BHS2

(24)

نظرات التوسُّل في عيني الدكتور حبيب كانت تمزّق قلبي، حاولتُ التملّص من قيودي بيأس، لكن من دون جدوى.

وقف عواد أمام الدكتور حبيب، ثم انحنى نحوه، وهمس في أذنه بصوت مسموع للجميع: «أنت تعرف يا دكتور أنّ لديكَ نقطة ضعف مميتة. أنتَ مستعد للتضحية بحياتكَ من أجل ابنتكَ».

حدَّق الدكتور حبيب إليه بعينين مليئتين بالخوف والغضب معاً، محاولاً الكلام من خلف الكمامة.

«لا تقلقْ.. فدوى ستكون آمنة. أنا أفعل هذا من أجلكَ في الواقع، لن تضطر لرؤية ابنتكَ تموت».

ثم غرس الإبرة في عنق الدكتور حبيب بحركة سريعة، ودفع السائل إلى داخل جسده.

صرختُ: «لا! توقف!.. لا يمكنكَ فعل هذا!».

تجاهلني عواد، وتراجع خطوة إلى الخلف، وأخذ يراقب الدكتور حبيب الذي بدأ يتلوّى في كرسيه، وعيناه متسعتان من الألم. استمر ذلك لثوان معدودة، ثم توقّف فجأة، وخمدَ جسده تماماً، ورأسه يتدلّى على صدره.

انتقل عواد بعد ذلك إلى كرسي راشد، الذي كان يصارع قيوده بيأس، محاولاً الصراخ من خلف كمامته :ماذا؟ ألم يقل بأنه سيترك راشد؟

قال عواد: «آه.. راشد، المليونير المحترم. ماذا سيقول الناس إذا عرفوا أنكَ كنتَ شريكي الصامت طوال تلك السنوات؟»

نظرتُ إلى راشد بذهول، ماذا يعني عواد؟

ابتسم عواد لارتباكي، وقال: «ألم تتوقّع ذلك؟ راشد، الرجل الذي كنتَ تكرهه وتظنُّه عدوكَ، كان شريكي. هو من وَفَّر لي هذا المصنع القديم، هو مَن كان يزوِّدني بالمال والمعدات والحماية. هو من ساعدني على التخلُّص من جثث الضحايا

السابقات، وهذا مقابل خدمة قديمة عندما خلَّصتُه من شقيقته، والتي كانت مرشحةً لتولي كل شيء بعد وفاة العمري الكبير. لقد صار مديناً لي إلى الأبد».

هزّ راشد رأسه بعنف، محاولاً إنكار ما يقوله عواد، لكنّ الخوف في عينيه كان يكشف الحقيقة.

واصل عواد: «لكن للأسف.. راشد صار ورقة محترقة! بدأ يشعر بالذنب وهدّدني بالاعتراف إذا لم أتركه في حاله. وهذا خط أحمر، كما تعلم».

ثم انحنى نحو راشد، وقال ببرود: «شكراً على خدماتكَ، كنتَ شريكاً ممتازاً حتى ضعفتَ.. لا أعلم متى سأراكَ مجدداً، لكن لا أظن أنّنا سنلتقي في مكانٍ جيّد».

وبنفس البرود غرس الإبرة في عنق راشد، الذي عانى لثوانٍ معدودة قبل أن يخمد جسده تماماً.

استدار عوّاد نحوي، وكان على وجهه تعبير

غريب، مزيج من الاستمتاع والخبث. قال: «والآن يا ساعف العزيز، لقد تغيّرت قواعد اللعبة قليلاً. عليك أن تختار أربعة فقط من السبعة المتبقين ليعيشوا».

شعرتُ بالذعر يجتاح كياني: «ماذا؟! قُلتَ خمسة! قتلتَ اثنين بالفعل!».

قال عواد ببساطة:

«اعتدتُ على أن أغيّر رأيي كثيراً، هذا امتياز القوة. الآن، أربعة فقط.. اختر بحكمة».

نظرتُ إلى الوجوه السبعة المتبقية، وقد اعتصر قلبي ألم لا يوصف. كلهم كانوا يبكون الآن، حتى أبي، الرجل الصلب الذي لم أره يبكي من قبل. الخوف يسيطر على الجميع، والرجاء في أعينهم كان يحطم قلبي.

تلجلجتُ شاعراً بالضغط الهائل عليّ:

«لا أستطيع... لا أستطيع الاختيار».

«بالطبع تستطيع، أنتَ كاتب تختار مصائر شخصياتكَ كل يوم».

صرختُ بمقت وغضب هائلين:

«هؤلاء ليسوا شخصيات روائية أيها الحقير المجنون! هؤلاء بشر حقيقيون! إنهم أفراد عائلتي!.. أصدقائي!».

تنهَّد عواد بضجر مصطنع: «حسناً، إذا كنتُ غير قادر على الاختيار، سأفعل ذلك بدلاً منك».

ثم توجَّه نحو فدوى ابنة الدكتور حبيب، التي كانت ترتجف بشدة، وقال: «سنبدأ بالابنة التي فقدت أباها للتو».

صرختُ:

«لا! أرجوكَ، أعطني وقتاً!».

لكنّ عواد تجاهلني، وغرس الإبرة في عنق فدوى، التي تلوّت بألم لثوان قبل أن تخمد تماماً. مشهد مروع آخر أُضيف إلى الصور التي

ستطاردني إلى الأبد.

«هذا أسهل بكثير، لا حاجة إلى التفكير الكثير».

همستُ والدموع تُغرق وجهي:

«أنتَ وحش!».

«أنا واقعي فقط. الحياة والموت يسيران ببساطة.. لا عواطف، لا تعقيدات».

ثم توجّه نحو هند وعلى وجهه ابتسامة قاسية: «هذه الجميلة الماكرة ستكون التالية. أتعرف؟ كانت تخطط لابتزازكَ طوال حياتكَ، ومع ذلك حين حاولتُ معها، رفضت التعاون معي».

«ماذا تعني؟».

«أعني أنني اقترحتُ عليها أن نعمل معاً، بعد أن اكتشفتُ نواياها نحوكَ. لقد اقترحتُ عليها أن تستمر في ابتزازكَ، وتأخذ أموالكَ، بينما أستخدمها كغطاء لأنشطتي. لكنها رفضت. قالت

إنها قد تكون انتهازية، لكنها ليست قاتلة».

نظرتُ إلى هند، وللمرة الأولى رأيتُ فيها شيئاً مختلفاً عمّا كنتُ أظنُّه. كان هناك حدّ لم تكن مستعدة لتجاوزه، رغم كل شيء.

قبل أن أتمكن من قول أي شيء، غرس عواد الإبرة في عنقها منهياً حياتها بنفس البرود.

«ماذا ستفعل الآن يا ساعف؟».

كانت الدماء تغلي في عروقي. الغضب، الخوف، اليأس كلها مشاعر تتصارع في داخلي. وفي تلك اللحظة، شعرتُ بشيء غريب يحدث في جسدي. الأدرينالين بدأ يتدفّق في عروقي بكميات هائلة، وحواسي تصبح أكثر حدة.

سأل عواد وهو يتجه نحو نجوى، الفتاة المراهقة الخائفة.

«هل أنتَ مستعد للاختيار الآن؟».

لم أجب، كنتُ مركزاً كل طاقتي في محاولة

تحرير يديَّ من القيود، تلك الأصفاد المعدنية كانت محكمة، لكنني شعرتُ بأن هناك شيئاً... نعم، المفصل في الكرسي الخشبي كان مهتزاً قليلاً. بدأتُ أضغط عليه بكل قوتي، بحركات خفيفة لا يلاحظها عواد.

«العقار كاد أن ينفد». قال عواد وهو ينظر إلى المحقن. «ربما أحتاج إلى طريقة أخرى مع البقية. السكين مثلاً، أو الخنق».

مع كل تهديد ينطق به، كان الأدرينالين يتدفّق أكثر في جسدي مانحاً إيّاي قوة لم أعهدها من قبل. واصلتُ الضغط على مفصل الكرسي محاولاً كسره، من دون أن ألفت انتباه عواد.

توجّه عواد نحو نجوى، وأخرج سكيناً صغيرةً من جيبه، وقال: «الفتاة الصغيرة أولاً».

كانت تلك اللحظة المناسبة، مع دفعة واحدة قوية كسرتُ المفصل الخشبي في ذراع الكرسي، محرراً يدي اليمنى من القيد المعدني الذي كان

مثبتاً به.

لم ينتبه عواد إلى ذلك، فقد كان منهمكاً في تحضير السكين. وبحركة سريعة حرّرتُ يدي الأخرى، ثم فككتُ الحبال عن قدمي. قال عواد رافعاً السكين نحو عنق نجوى.

«وداعاً يا صغيرتي».

قفزتُ عن الكرسي بكل قوتي مندفعاً نحو عواد كصاروخ بشري، اصطدمتُ به بقوة أوقعته أرضاً والسكين تطير من يده، صرخ عواد بدهشة.

«ماذا؟ كيف...!».

تدحرجنا على الأرض، كل منا يحاول السيطرة على الآخر. كان عواد قوياً بشكل مفاجئ، عضلاته صلبة رغم مظهره الطفولي. لكن غضبي ويأسي منحاني قوة لا تقهر. صرختُ وأنا أُوجِّه لكمة قوية إلى وجهه:

«لن تقتل أي شخص آخر أيها الوضيع المختل!».

تفادى اللكمة، ودفعني بعيداً عنه، ثم نهض بسرعة محاولاً الوصول إلى المسدس الذي كان في جيبه.

أدركتُ نواياه، فاندفعتُ نحوه مرة أخرى، قبل أن يتمكّن من إخراج المسدس. اصطدمنا معاً، وارتطمنا بحائط قريب. كان هناك سُلّم حديدي قديم يؤدي إلى سطح المصنع، وبدأنا نتصارع ونحن نتحرّك نحوه.

«لن تستطيع إيقافي!»

صرخ عواد محاولاً خنقي بيديه.

دفعتُه بقوة مُبعداً يديه عن عنقي، ثم وجَّهتْ لكمة قوية إلى بطنه جعلته ينحني من الألم.

تراجع عواد إلى الخلف واصطدم بالسلم الحديدي، نظر إليه، ثم إليّ، وقرّر الهرب. بدأ يتسلّق السلم بسرعة متجهاً نحو السطح.

لم أتردّد للحظة، تبعتُه صعوداً، مُصمِّماً على عدم

وصل عواد إلى سطح المصنع وأنا خلفه مباشرة. كان السطح واسعاً مستوياً محاطاً بسياج معدني متآكل متهالك. المطر بدأ يهطل بخفة مبللاً الأرضية الإسمنتية، جاعلاً إيّاها زلقة. قلتُ وأنا أقترب منه ببطء:

«انتهى الأمر يا عواد، لن تؤذي أحداً بعد اليوم».

ضحك ضحكة جنونية، وقال: «أتظنّ أنكَ تستطيع إيقافي؟ أنا أفعل ما أريد دائماً!»

ثم أخرج المسدس من جيبه أخيراً، وصوَّبه نحوي، وقال: «وداعاً يا أحمق!».

في تلك اللحظة الحاسمة، فعلتُ شيئاً جنونياً. بدلاً من التراجع، اندفعتُ نحوه مباشرة، بكل قوتي وسرعتي.

أطلق النار، لكنّ الرصاصة أخطأتني، مرّت بجانب أذني. قبل أن يتمكن من إطلاق رصاصة ثانية،

285 (251 صفحة - (24)

جسدي.

فقدَ عواد توازنه، وسقط المسدس مَن يده متدحرجاً على السطح المبلل. حاول التقاطه، لكنني أمسكتُ به بقوة، وتصارعنا من جديد.

استمر الصراع لحظات، كل منا يحاول السيطرة على الآخر. كنا نتحرك نحو حافة السطح، حيث السياج المعدني المتهالك. صرخ عواد بجنون محاولاً خنقي مرة أخرى:

«سأقتلكَ!».

أمسكتُ بيديه وأبعدتهما عن عنقي، ثم نظرتُ في عينيه، وقلتُ وأنا ألهث: «لا، لن تفعل».

ثم في لحظة يائسة أخيرة، احتضنته بكل قوتي، وألقيتُ بجسدي إلى الخلف، نحو السياج المتهالك.

لم يصمد السياج أمام وزنيْنا المجتمعين، انهار بصوت معدني مميز، وسقطنا معاً من فوق

الهواء يصفر في أذني، والمطر يلسع وجهي، وصرخة عواد تتلاشى في الفضاء. كنا نسقط.. نسقط من ارتفاع ثلاثة طوابق نحو الأرض الصلبة أسفل المصنع:

«سنموت معاً!».

آخر ما رأيتُه قبل الارتطام كان وجه عواد، وقد تحوّل من الغضب إلى الخوف، ثم إلى إدراك النهاية.

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

ثم كان هناك صوت ارتطام مروع، وألم هائل يغمر جسدي كلّه، ثم ظلام عميق.

(25)

ألم خفيف في كامل جسدي، أصوات مكتومة تأتي من بعيد، اهتزاز خفيف وثابت ينتقل إلى ظهري. رائحة عطر غريبة، مزيج من التوابل القديمة والمسك، مختلطة برائحة معدن وزيت.

فتحتُ عينيَّ ببطء، وكأن جفنيَّ قد صُنِعَا من الرصاص. ضوء أبيض مزعج يغمرني، وصور ضبابية تتراقص أمامي. أين أنا؟ ماذا حدث؟

بدأت الرؤية تتضح تدريجياً، سقف رمادي منخفض، جدران مغطاة بملصقات ممزقة وبكتابات عشوائية، مقاعد بلاستيكية زرقاء مصفوفة على الجوانب، نوافذ مستطيلة تعرض مشهداً متحركاً لظلام دامس مع أضواء متقطعة.

هل أنا في... باص للمواصلات؟

حاولتُ تحريك رأسي، فشعرتُ بدوار خفيف. كنتُ مستنداً إلى جدار العربة، جسدي شبه منهار على

في هذا الوضع الغريب.

«هل أنتَ بخير يا بني؟».

نظرتُ إلى مصدر الصوت، رجل مسن - ربما في الثمانينات من عمره - يجلس على المقعد المقابل. لحية بيضاء طويلة تغطي نصف صدره، وعينان صافيتان تنظران إليَّ باهتمام، وعلى رأسه طاقية بيضاء بسيطة. كان يرتدي جلباباً رمادياً وعباءة خفيفة فوقه رغم حرارة الطقس، في يده عصا خشبية منقوشة بزخارف دقيقة.

نظرتُ حولي بحيرة، الباص شبه فارغ باستثناء بضعة ركاب متفرقين، كل منهم غارق في عالمه الخاص. لا أحد يبدو مهتمّاً بحالتي باستثناء هذا الشيخ الغريب. سألتُ بصوت متحشرج:

«ماذا... ماذا حدث؟» .

ابتسم الشيخ ابتسامة هادئة، وقال: «أنتَ بخير عظيم. كدتَ تسقط وأنتَ واقف حين توقّف الباص فجأة، ومددتَ يدكَ لتطلب المساعدة، فأمسكتْ

بيدكَ لأساعدكَ، ثم فقدتَ وعيكَ للحظات».

حاولتُ استيعاب كلامه، مستحيل! آخر ما أتذكره هو سقوطي مع عواد من أعلى سطح المصنع والارتطام بالأرض. كيف انتهى بي المطاف هنا.. في الباص، مع هذا الشيخ الغريب؟

قلتُ مرتبكاً:

«هذا... هذا غير منطقي! أنا كنتُ في مكان آخر تماماً... مع شخص آخر...».

ضحك الشيخ ضحكة خافتة ودافئة، وقال: «الأحلام يا بني، أحياناً تكون أكثر واقعية من الواقع نفسه. ربما حلمتَ أثناء فترة إغمائكَ القصيرة هذه».

***

شعرتُ بأن كل شيء غريب، كأنّني في حلم مخضَّب بالألوان!

***

شعرتُ باضطراب يجتاح كياني، حلم؟ مستحيل! كان كل شيء واقعياً جداً: الدكتور حبيب، عوّاد، راشد، عائلتي، المقبرة السرية، الجثث، المصنع، السقوط... لا يمكن أن يكون كل ذلك مجرد حلم!

سألتُ بتوتر:

«كم من الوقت فقدتُ وعيي؟».

أجاب الشيخ:

«بضع دقائق فقط، لكنها كانت كافية لتقلقني عليكَ».

نظرتُ إلى ملابسي، كانت نظيفة مرتبة، لا آثار للدماء أو للصراع أو للسقوط. تحسستُ وجهي ورأسي، لا جروح، لا كدمات، لا ألم حقيقي. هل يمكن أن يكون كل ما عشتُه مجرد حلم؟ لكنّه كان واضحاً جداً بتفاصيله، مترابطاً إلى أقصى حد!

رفعتُ عينيَّ نحو لوحة العرض الإلكترونية المعلّقة وسطَ الباص، والتي تعرض الوقت

قلبي يكاد يتوقف.

السابع من نوفمبر، الساعة 7:15 مساءً.

اتسعت عيناي بذهول، هذا... هذا هو اليوم الذي التقيتُ فيه هند للمرة الأولى حين تركتني! كان هذا قبل كل شيء! قبل الشجار مع راشد، قبل فقدان ذاكرتي، قبل الدكتور حبيب وعواد، قبل المقبرة السرية، قبل كل الأحداث المروعة التي عشتُها!

أحسستُ بدوار قوي، وباضطراب في معدتي. مستحيل!.. كيف يمكن أن أعود إلى الماضي؟

فجأة، تذكرتُ إلى أين كنتُ متجهاً في ذلك اليوم، كنتُ في طريقي لمقابلة هند في المقهى الفاخر في شارع الخليج العربي. تدفقت الذكريات بغزارة، نعم.. كنتُ في الباص، متوجهاً للقاء هند، ثم شعرتُ بدوار مفاجئ وبتعب غريب، ومددتُ يدي طلباً للمساعدة... ثم فقدت وعيي للحظات.

لكنني أثناء تلك اللحظات القليلة، عشتُ أشهراً كاملة من الأحداث، رأيتُ فيها مستقبلاً مرعباً، مليئاً بالدم والجثث والغدر والخيانة!

سألني الشيخ، وقد لاحظ اضطرابي الشديد:

«هل أنتَ متأكد من أنكَ بخير يا بني؟ وجهكَ شاحب جداً».

كانت عيناه تراقباني بنظرة غريبة، فيها شيء من المعرفة والحكمة العميقة، كأنه يعرف تماماً ما أمرّ به. أجبتُ بصدق:

«أنا... لا أعرف. شعرتُ وكأنني عشتُ حياة كاملة في تلك اللحظات القليلة».

ابتسم الشيخ ابتسامة بدت لي غامضة، وقال:

«أحياناً تمنحنا الحياة هدية ثمينة. لمحة من المستقبل، رؤية لما قد يحدث، فرصة لتغيير المسار قبل فوات الأوان».

حدّقتُ إليه بدهشة، هل يعرف ما حدث لي

سألته بصوت منخفض:

«من أنتَ؟».

اتسعت ابتسامته، وهو يقول: «مجرد إنسان عابر، مثلكَ تماماً».

رنّت كلماته بشكل غريب فى أذنى، كأنها تحمل معنى أعمق ممّا تبدو عليه.

«هل... هل كل ما رأيتُه كان حقيقياً؟ هل سيحدث كل ذلك حقاً؟».

ضحك الشيخ ضحكة خافتة مرة أخرى، وقال: «الزمن ليس خطاً مستقيماً يا بني، إنّه نهر متدفِّق، يتفرّع ويلتوي ويعود على نفسه أحياناً، إنه مرن بشكل لا يمكن أن نتخيّله. ما رأيتَه ربما يكون مستقبلاً محتملاً، أو تحذيراً، أو درساً. لكنّ الاختيار يبقى بين يديكَ دائماً».

بعدها قال : اسمكَ ساعف .. هل تعرف ما معنى اسمك .. المعين المساعد القريب .. ومن

يقضي حوائج الناس، ولكل امرئ من اسمه نصيب.

ثم أشار نحو لوحة العرض، وقال: «محطتكَ التالية.. القرار لكَ الآن».

نظرتُ إلى اللوحة، محطة شارع الخليج العربي، حيث من المفترض أن أنزل للقاء هند. في العالم الآخر، العالم الذي عشتُه في رؤياي أو حلمي، كان ذلك اللقاء بداية سلسلة من الأحداث المظلمة التي انتهت بمأساة. هل سيتكرر كل شيء إذا نزلتُ الآن؟

نظرتُ مرة أخرى إلى الشيخ، أردتُ أن أسأله المزيد، لكنّه أغمض عينيه في هدوء.

شعرتُ بقشعريرة تسري في جسدي كله، ثم لمعت في ذهني فكرة جعلت قلبي يخفق بجنون.

السجلات الأكاشية! الكتاب الأعظم الذي يحتوي على أحداث الوجود!

كلها أشياء تحدّث عنها الدكتور حبيب، هل

عشتُ فعلاً كل تلك الأحداث المستقبلية، ثم أُعِدتْ إلى هذه اللحظة المفصلية في حياتي؟ لكن كيف؟.. كيف؟

بدأ الباص يُبطئ مقترباً من المحطة التالية، محطة الخليج العربي. حيث من المفترض أن أنزل للقاء هند. بداية القصة..

أم نهايتها؟

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

@N_BHS2

خاتمة

وصلتُ إلى المطعم متأخراً.

دفعتُ الباب الزجاجي، فاستقبلني هواء المكان الدافئ، كانت أضواء المطعم خافتة ورومانسية، ممّا زاد من سخرية الموقف. بحثتُ عنها بعينيَّ، فرأيتُها تجلس في الركن البعيد وعلى وجهها تعبير قرأتُه مراراً في روايات كثيرة كتبتُها: تعبير الوداع.

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

تقدمتُ نحوها وقدماي تغوصان في السجاد الأحمر، كأنني أسير في وحل لزج. رفعَتْ رأسها حين رأتني، وحاولَتْ أن تبتسم، لكنّ ابتسامتها خانتها، فبدت كتشقق في جدار قديم.

قالت بنبرة أقرب إلى الهمس، واحتضنت فنجان قهوتها بكلتا يديها، كما لو كانت تستمد منه قوة خفية.

«مرحباً».

جلستُ أمامها بهدوء، ووضعت يديَّ على الطاولة، محاولاً السيطرة على ارتعاشهما الخفيف.

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

«مرحباً هند.»

خيَّم علينا صمت ثقيل، صمت يشبه سكون الهواء قبل العاصفة. جاء النادل ورحل بعد أن طلبتُ كأساً من الماء فقط، لم أكن أستطيع ابتلاع أي شيء في تلك اللحظة.

نظرت هند إلى فنجانها الفارغ تقريباً، ثم رفعت عينيها إليَّ، وكانتا مملوءتين بمزيج من الأسى والتصميم. تنهّدت بعمق، ثم قالت بصوت خافت: «ساعف، أنا آسفة... لكن لا يمكنني الاستمرار في هذه العلاقة. لقد حاولتُ.. حاولتُ كثيراً، لكنني لم أعد أستطيع خداع نفسي أكثر من ذلك».

توقعتُ أن أشعر بالألم يخترق صدري كسهم مسموم، لكنّ المفاجأة كانت أنني لم أشعر

بشيء!. تأمّلتُ وجهها الفاتن للحظات، كانت تنتظر انهياري، صراخي، توسلي، أو حتى غضبي العنيف. لكنني ببساطة وبهدوء تام ابتسمتُ ابتسامة باهتة وأنا أقول: «أتفهَّم ذلك».

اتسعت عيناها بدهشة، وكأنها لم تتوقّع هذه الاستجابة الباردة المتزنة.

سألت بحيرة، وصوتها يرتفع قليلاً مثيراً انتباه الزوجين الجالسين حول الطاولة المجاورة لنا:

«أهذا كل شيء؟ ‹أتفهَّم ذلك›؟».

أخذتُ رشفة من الماء، شعرتُ بالسائل البارد ينزلق في حلقي الجاف، ثم أجبتُها بنبرة هادئة:

«ماذا تريدينني أن أقول؟ إذا كان قرارِكِ هو إنهاء العلاقة، فلا يمكنني إجبارِكِ على البقاء. الحب ليس سجناً يا هند».

شعرتُ بيديها ترتجفان على الطاولة، وبصوتها يتحوّل إلى همس متقطع: «حسناً... كنتُ أظن أن الأمر سيعني لكَ أكثر من ذلك. ثلاث سنوات بيننا

يا ساعف.. ثلاث سنوات، وكل ما لديكَ هو ‹أتفهَّم ذلك›؟».

هززتُ كتفيّ ببساطة وابتسمتُ ابتسامة أخرى، علمتُ أنها استفزّتها أكثر: «الحياة تستمر، أليس كذلك؟ نحن نلتقي، نحب، نفترق. هذه هي دورة الحياة الطبيعية».

رأيتُ الدمعة التي تشكَّلت في زاوية عينها اليمنى، لكنها رفضت أن تسمح لها بالسقوط. بدلاً من ذلك، نهضت فجأة وعيناها تشتعلان غضباً وخيبة أمل. دفعت كرسيها إلى الخلف بعنف، حتى إنه كاد أن يسقط، ممّا جذب انتباه روَّاد المطعم بأكمله.

وقفت تنظر إليّ نظرة أخيرة، وكأنها ترى وحشاً في هيئة إنسان للمرة الأولى:

«لم أكن أعرف أنكَ بارد إلى هذه الدرجة، طوال الوقت كنتَ تكتب عن الحب والشغف في رواياتكَ، وأنا الحمقاء.. صدّقت أن لديكَ قلباً. ظننتُ أنني

أعرفكَ، لكنني كنتُ مخطئة تماماً، يا ساعف. أنتَ لا تستحق دمعة واحدة».

راقبتُها وهي تلتقط حقيبتها وتغادر المطعم بخطوات غاضبة، وشعرها الأسود الطويل يتمايل خلفها كستارة حريرية سوداء. لم تلتفت خلفها ولو مرة واحدة... لم أحاول منعها من الرحيل، أو اللحاق بها. جلستُ مكاني أرشف الماء ببطء، والشعور الغريب بالفراغ يتسلّل إلى صدري كالماء البارد.

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

أخرجتُ محفظتي ووضعتُ بعض النقود على الطاولة، أكثر ممّا يستحق فنجان قهوة وكأس ماء. خرجتُ إلى الشارع وسِرتُ بلا هدف تحت أضواء المدينة الصفراء الشاحبة، التي ما زالت تراقبني من أعلى كعيون صفراء!

لفتت نظري تلك السيارة الزرقاء المألوفة، وهي تتحرك بجنون وسط السيارات الأخرى، ولمع في ذهني شيء. السابع من نوفمبر! إنّه نفس

التاريخ الذي فقد فيه حبيب زوجته، وتغيّرت فيه حياته إلى الأسوأ. السيارة الزرقاء أهي سيارة راشد العمري؟!

لمحتُ سيارة حبيب وهي قادمة من الاتجاه الآخر، ماذا أفعل؟.. ماذا أفعل؟ كانت هناك عربة آيس كريم خشبية تركها صاحبها لمحاسبة زبون يقف على بعد عدة أمتار. تحرّكتُ بسرعة نحوها وأمسكتُها بقوة، ثم دفعتُها أمام سيارة راشد الذي حاول تجنُّبها، وتحرك بالفعل إلى اليسار، لكنّ ارتطامه بالعربة الخشبية جعلها تشكل حاجزاً بينه وبين الجدار الأسمنتي، فأنقذت حياته!

إنه الجدار الأسمنتي الذي ارتطم به حبيب من قبل، فلقيت زوجته مصرعها إثر الحادث!

هنا ظهرت سيارة حبيب، والذي توقّف وغادر سيارته ومعه ابنته الجميلة فدوى وزوجته، وتساءل عمّا يحدث، فحكى له أحد المارة المتجمعين ما حدث، فضرب كفاً بكف، وقال:

«لن يخلو العالم من المجانين!».

ووجدتُني أسقط على ظهري، وأغرق في نوبة من الضحك الهستيري مما دعَّم فكرة جنوني!

لقد مررتُ بالآخرين أيضاً، لم أنسَ ذلك طبعاً.. يجب أن أضع للقصص نهاية، لن أجعلها مفتوحة، لقد أزعجني (سعد البدر) بروايته «المتلبِّس» بعد أن جعل النهاية هكذا، ولم أعرف ماذا سيحدث لطلال في النهاية! بعد الأحداث الشيقة التي عشتُها في ذلك العمل.. لن أفعل مثل ذلك المتلاعب طبعاً.. سأُغلق تلك القصص

أولاً: نعيم.. قلت له:

«إن لم تُطلِّق زوجتكَ الثانية، فسأخبر زوجتكَ الأولى بالسر الذي تُخفيه، وأنتَ تعلم ما سيحدث بعدها».

قال نعيم الحمد بمقت:

«أنتَ وغد! هل تبتزني؟».

قلتُ مبتسماً وأنا أوليه ظهري:

«لم أطلب منكَ مالاً يا أحمق، أريد إنقاذكَ من حماقة ستُدمِّر زواجكَ وعائلتكَ فحسب».

....

سمح لي السكرتير بالدخول، وكانت المفاجأة بأنّ هند كانت جالسة هناك وهي تبتسم بشماتة. ضربتُ كفاً بكف:

«أنتِ لا تُضيعين وقتكِ يا هند!».

لمعت عيناها بانتصار، وهي تضع ساقاً على ساق. قال راشد:

«فيمَ تريد مقابلتي يا أستاذ ساعف؟ إذا كنتَ قد أتيتَ بخصوص حبيبتي هند، فأنتَ...».

قاطعته:

«لا، لا. هند لا تعنيني في شيء البتة، جئتُ بخصوصكَ أنتَ».

هند، قال راشد بهدوء:

«ماذا إذن؟».

قلتُ وأنا أتأمَّله:

«الشرطة في الطريق إليكَ، أعتقد أنهم سيدخلون المبنى الآن».

اعتدلت هند بتوتر، قال راشد بثبات انفعالي مدهش:

«وماذا تريد مني الشرطة؟».

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

قلتُ بلا مبالاة:

«تريد استجوابكَ بخصوص جريمة قديمة ارتكبها شريكك عوّاد، حين قتلتَ شقيقتكَ، وبخصوص جرائم أخرى أنتَ شريك فيها بالصمت!».

بانَ الذعر على وجه هند، بينما كاد المقعد يسقط براشد من شدة اضطرابه وتحرُّكه الحادّ من فرط المفاجأة!

فتحتُ باب شقتي، وحين فتحتُه تشاغلتُ بنزع المفتاح وبوضعه مرة أخرى في ثقب الباب، وأنا أعلم ما سيحدث، وقد حدث. انفتح باب شقة آيدن، وخرجت منها وهي تضع وشاحاً ثقيلاً على كتفيها من شدة البرد. خفق قلبي بشدة، قالت بابتسامة دافئة:

«مساء الخير».

ثم ضحكت بخجل وهي تنظر إلى ساعتها:

«أم أقول صباح الخير؟ هذه من المرات النادرة التي تتأخر فيها في الخارج!».

قلتُ بلهجة يبدو كلامي فيها مزاحاً:

«كان اليوم طويلاً، فقد انشغلت فيه بإنقاذ أسرتين، وبالقبض على قاتل متسلسل ومتستَّر عليه».

ابتسمت ببراءة، بدا عليها أنها لم تفهم ما أقوله، لكنها مستمتعة به.

276 1282

تذكرتُ مشهد موتها الأليم، قلتُ لها:

«أنتِ إذن مَن وقعّتُ لها نسخة من روايتي الأولى (ثم هوى)؟».

بدت عليها دهشة المفاجأة، قالت:

«هل تذكرتَ؟».

قلتُ ضاحكاً:

«ليس بالضبط».

ثم تأمّلتُ وجهها الذي صِرتُ أعشقه:

«هل تعلمين أني عرفتُ اليوم شيئين في غاية الأهمية؟».

سألتني بشغف:

«ما هما؟».

قلتُ لها:

«قابلتُ رجلاً عجوزاً يتمتع بقوة غريبة تُدعى السجلات الأكاشية، وجعلني أخوض رحلة عجيبة

في المستقبل، خلال دقائق قليلة جداً بمجرد أن أمسك يدي. والطريف أني في هذه الرحلة كنتُ أظن أني متمتِّعٌ بذات القدرة!».

لكن الحقيقة أنه هو من كان يتمتع بها.. يتمتع بها إلى درجة أنني خضتُ رحلة خاصة بي في مستقبل لم يحدث بعد!».

اتسعت عيناها دهشة وحيرة من هذا الهُراء الذي تسمعه، واصلتُ كلامي، وقلبي يدقّ بسرعة:

«أمّا الشيء الثاني الذي عرفتُه اليوم هو أنّ هذا المستقبل المحتمل فيه شيء واحد مؤكّد، وهو الأكثر أهمية».

قالت بدهشة، وهي تحاول مسايرتي في هذا الجنون الذي أتلفظ به:

«وما هو؟».

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

«أنني أحبكِ».

(تمت)

أعمال الكاتب

- 2013 (غسق) مجموعة قصصية
- 2014 (ليل السوالف) مجموعة قصصية
- 2015 (ثم هوى) رواية
- 2016 (الليلة لن أنتظر شيئاً) رواية
- 2017 (شيء يشبه النسيان) رواية
- 2018 (اختلال) رواية
- 2018 (معصية ليلى) رواية
- 2019 (أليسع) رواية
- 2020 (وحدها بدرية تعرف) رواية
- 2021 (المحظور) رواية
- 2022 (لم يره أحد) رواية
- 2022 (مقتل زوج خائن) رواية
- 2023 (مفتاح جهنم) رواية

- 2023 (اصرخ لا أحد يسمعك) رواية
- 2024 (السرعوف) رواية
- 2024 (المتلبس) رواية